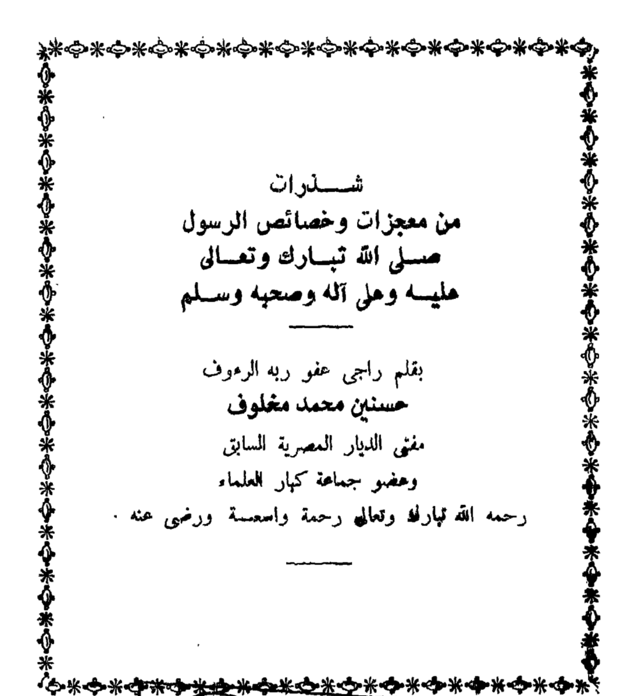
سبيل الله

"قل هذه سبيلي أدعو إلى الله
على بصيرة أنا ومن اتبعني"
صدق الله العظيم

شذرات
من معجزات وخصائص الرسول
صلى الله تبارك وتعالى
عليه وعلى آله وصحبه وسلم

بقلم راجي عفو ربه الرءوف
حسنين محمد مخلوف
مفتي الديار المصرية السابق
وعضو جماعة كبار العلماء
رحمه الله تبارك وتعالى رحمة واسعة ورضي عنه .

مطبعة الكيلاني
المدير المسئول : رشاد كامل كيلاني
٢٢ شارع غيط العدة - باب الخلق
ت ٩١٨٥٩٨



شـــذرات
من معجزات وخصائص الرسول
صـــلى الله تبـــارك وتعـــالى
عليـــه وعلى آله وصحبه وســـلم

بقلم راجى عفو ربه الرءوف

حسنين محمد مخلوف

مفتى الديار المصرية السابق

وعضو جماعة كبار العلماء

رحمه الله تبارك وتعالى رحمة واسعـــة ورضى عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله تبارك وتعالى الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق المبين ، فكان نوراً وضياء ورحمة للعالمين ، والصلاة والسلام الأتمان على خاتم الأنبياء وأفضل المرسلين : سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه مصابيح الظلام وهداة السالكين .

(وبعد) :

فقد وقفت منذ سنين على هذه المدحة النبوية فى بعض الكتب ، غير معزوّة لناظم ، ولا مشروحة — وهى :

الصُّبْحُ بَدا مِنْ طَلْعَتِهِ ،

وَاللَّيْلُ دَجا مِنْ وَفْرتِهِ .

فاقَ الرُّسْلا فَضْلًا ، وَعَلا .

وَهَدَى السُّبْلا بِدَلالَتِهِ .

كَنْزُ الْكرَمِ مَوْلَى النِّعَمِ

هادِى الْأُمَمِ بِشَرِيعَتِهِ .

أَزْكَى النَّسَبِ أَعْلَى الْحَسَبِ .

كُلُّ الْعَرَبِ فِى خِدْمَتِهِ .

سَعَتِ الشَّجَرُ نَطَقَ الْحَجَرُ .

شُقَّ الْقَمَرُ بِإِشارَتِهِ .

جِبْرِيلُ أَتَى لَيْلَ الإِسْرا .
وَالرَّبُّ دَعَاهُ لِحَضْرَتِهِ .

نَالَ الشَّرَفَا وَاللهُ عَفَا .
عَمَّا سَلَفَا مِنْ أُمَّتِهِ .

فَوَسِيلَتُنَا هُوَ سَيِّدُنا .
وَالْعِزُّ لَنَا بِإِجابَتِهِ .

* * *

فما إن أنعمت النظر فيها حتى انشرح صدرى لشرحها ، لما تضمنته – على صغرها – من الإشارة إلى (بعض المعجزات والخصائص النبوية والشمايل والفضائل المحمدية) شرحاً يوضح معانيها ، ويكشف عن مراميها فى إيجاز واختصار ، لسهولة التناول والاستحضار ، راجيا من الله تبارك وتعالى حسن القبول ، وأن يكون لى به حظ القرب من حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى آله وأصحابه ، وبلغنا بحبه وحبهم المأمول .

فأقول مستعينا بالله تبارك تعالى :

ثناء الله تبارك وتعالى على رسوله فى القرآن

لقد أثنى الله تبارك وتعالى على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم بمحامد كثيرة ، ونوّه بعظيم قدره ، وشريف منزلته ، وما خصه به من ألطاف بره ومحبتــه ، وتحف إكرامه وعنايته فى آيات عديدة ، من الذكر الحكيم ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾

فسماه تبارك وتعالى باسمين من أسمائه الحسنى ..

كما سماه نــوراً وسراجاً منيراً فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِى بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ ﴾ .

وقوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا * وَدَاعِيًا إِلَىٰ اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ .

وجعــل تبارك وتعــالى مبعثه منة منه وفضــلا على المــؤمنين ، ورحمة للعالمين ، فقال :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

وذكر تبارك وتعالى بعض ما خصه بـه من الكرامات ، فقال :

﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا . وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ *

وقال تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ * وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ .

إلى آيات كثيرة فى مدحه والثناء عليه والتنويه بخصائصه وما أكرمه الله به . فكان تبارك وتعالى من ذلك — للمثنين عليه ، بمدائحهم ، نثراً ، ونظماً — أشرف قدوة ، وأحسن أسوة ، فأفاضوا فى الثناء والمديـح وذكر محاسنه وشمايله ، ومناقبه وفضائله ، وكراماته عند ربه وخصائصه صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم :

عجز المادحون عن بلوغ الغاية فى مدحه

ولكنهم – على علو كعبهم ، وعظيم فضلهم ، ووفرة علمهم ، وبذلهم فى ذلك أقصى جهدهم – لم يبلغوا فيه غاية ، ولم يقربوا له من نهاية ، ولم يؤدوا حق قدره العظيم ، من الثناء ، والوصف ، والتكريم .

فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ
حَدٌّ فَيُعْرِبَ عَنْهُ ناطِقٌ بِفَم

إِنَّما مَثَّلُوا صِفاتِكَ لِلنَّا
سِ كَما مَثَّلَ النُّجُومَ الْماءُ

وكيف يطمع أطول المادحين باعاً ، وأكثرهم اطلاعا ، وأبرعهم وصفاً ، وأبلغهم مقالا أن يبلغ ذرى علياء ذلك الرسول المصطفى : خيرة الله من خلقه ، الذى فضله على جميع رسله ، وكرمه غاية التكريم ، فقرن اسمه صلى الله عليه وسلم باسمه العظيم ، فى كلمة الإيمان ، وفى الصلاة ، والأذان ، كما يشير إليه قوله تبارك وتعالى :

﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ ،

وقرن طاعته بطاعته فى قوله تبارك وتعالى :

﴿ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ .

بل جعل طاعته طاعته ؛ ومبايعته مبايعته ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ ﴾ .

وأقسم تبارك وتعالى فى القرآن الكريم بحياته ، فقال :

﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ .

وببلده الأمين « مكة » : أم القرى ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَٰذَا الْبَلَدِ * وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَٰذَا الْبَلَدِ ﴾ .

وبعصره وزمانه ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴾ .

وأقسم تبارك وتعالى على تحقيق رسالته ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ يسٓ * وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ *

إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

وعلى إنعامه عليه وعظيم قدره لديه ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴾ .

وأقسم تبارك وتعالى على تصديقه فيما أتى به من وحيه وكتابه ، وتنزيهه عن الهوى فى خطابه ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ *

وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾ .

وعلى ما خصه به من الخلق العظيم ، وحباه من الفضل العميم ، فقال تعالى :

﴿ نٓ * وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ * مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ

بِمَجْنُونٍ * وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ *

وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ * ﴾ .

إلى كثير من الآيات البينات تمجيداً له وإعظاما ، وتصديقاً وإنعاما ، وتفضيلا وإكراماً .

ثم اجتباه ربه ، فناجاه فى حضرة قدسه ، ومقام أنسه ، مناجاة الحبيب للحبيب ، ورفعه إلى أعلى مراتب التقريب ، وجمع فيه ما تفرق فى رسله الأخيار من أشرف الخلال ، وخصه بأفخم حلل الجمال والجلال ، ولله در الإمام البوصيرى ، حيث يقول فى بردته :

فَحُزْتَ كُلَّ فَخارٍ غيْرَ مُشْتَرَكٍ
وَجُزْتَ كُلَّ مَقامٍ غَيْرَ مُزْدَحِمِ

وجَلَّ مِقْدارُ ما وُلِّيتَ مِن رُتَبٍ
وعَزَّ إدْراكُ ما أُولِيتَ مِنْ نِعَمِ

فلم يكن لمصاقع البلغاء ، وفطاحل الشعراء بد من الاعتراف : ببالغ العجز والتقصير فى مقام الوصف والثناء ، وذكر شمايله ، ومحاسنه الفيحاء ، وكراماته ، وخصائصه الغراء صلى الله تبارك وتعالى عليه وآله وصحبه وسلم ، مع كثرة ما قالوه نثراً فأحكموا ، ونظما فأبدعوا :

مَدَحَتْكَ آياتُ الْكِتابِ فَما عَسَى
يُثْنِى عَلَىَ علْياكَ نَظْمُ مَديحِى

وَإذا كِتابُ اللهِ أَثْنَى مُفْصِحًا
كانَ الْقُصُورُ قُصارَ كُلِّ فَصِيح

أَغيا الْورَى فَهْمُ مَعْناهُ فَلَيْسَ يُرىٰ

لِلْقُرْبِ وَالْبُعْدِ فِيهِ غَيْرُ مُنْفَحمِ (١)

كَالشمْسِ تظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعُدٍ

صَغِيرَةً وَتُكِلُّ الطَّرْفَ مِنْ أَمَمِ (٢)

وَكَيْفَ يُدْرِكُ فِى الدُّنْيا حَقِيقَتَهُ

قَوْمٌ نِيامٌ تَسَلَّوْا عَنْهُ بِالْحُلُمِ

فمَبْلَغُ الْعِلْمِ فِيهِ أَنَّهُ بَشَرٌ

وَأَنَّهُ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ كُلِّهِمِ

وقد درج الناظم رحمه الله على سنن أولئك الأعلام المادحين ، ونهج الصفوة الواصفين . فقال فى وصفه صلى الله عليه وسلم .

الصبح بدا من طلعته

(الصبح) أول النهار . وهو وقت انبثاق النور والضياء .
(والطلعة) بفتح فسكون : الوجه أو الرؤية .

أى إنه صلى الله عليه وسلم حين برز فى عالم الظهور انفلق الليل عن صبحه ، وأشرق الكون بنور وجهه ، فكان وجوده بداية النور والهداية ، ثم كان مبعثه نهاية الظلمات والغواية التى تغشت الأبصار فأعمتها ، والأسماع فأصمتها ، والبصائر فأضلتها ، وعن مهيع الحق والرشاد صدتها فأردتها .

---

(١) منفحم : مقهور .   (٢) أمم بالتحريك : قرب .

وصف الناس قبل البعثة المحمدية وبعدها

كان الناس فى فترة من الرسل عمياء ، وجهالة جهلاء ، مقيمين على عصبية نكراء ، وفى حمأة حمية حمقاء ، وعلى التعادى والتداعى وشن الغارات وسفك الدماء ، يعبدون من دون الله ما لا يبصر ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع من الأوثان والأصنام ، ويعظمون الطواغيت ، ويستقسمون بالأزلام ، ويحرمون الحلال ، ويحاون الحرام ، ويئدون البنات ، ويأتون الفواحش والمنكرات ، إلى غير ذلك من الجهالات ، لا يكفهم عن ذلك عقل ولا يردعهم شرع . ثم بعث الله تبارك وتعالى رسوله محمداً صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم بالبينات رحمة للعالمين ، وهدى ونوراً ، وشاهدا ومبشراً ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، فأخرج الناس من ظلمات الجهالة إلى نور العلم والعرفان ، وهداهم إلى الحق بساطع البرهان ، وعلمهم ما جهلوه من الحلال والحرام ، وزكاهم مما ظلوا فيه أحقابا من الأوهام :

﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِى ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ ،

وألف بينهم وجمع على الحق كلمتهم ، وأقام على التوحيد والهدى عقيدتهم .

وأنـزل الله تبارك وتعالى معه كتـابا عربيا مبينا هـدى للمتـقيـن ، ونورا للسائرين ، وشرعة للمؤمنيـن ، ومنـهاجا للطالبيـن :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾

﴿ هَٰذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾

﴿ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ .

وختم الله تبارك وتعالى بالإسلام سائر رسالاته إلى البشر ، وجعل هذا الكتاب مهيمـنا على سائر الكتب السماوية السابقة وأودعـه العلم ، والحكمة ، والهدى ، وكل ما للناس إليه حاجة فى الآخرة والأولى ، قـال تبارك وتعالى :

﴿ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ .

فكان : دعوة الحق ، والآية البينة ، والحجة البالغة ، القائمة على توالى الدهور إلى قيام الساعة .

كما ختم الله تبارك وتعالى الأنبيـاء والمرسلين بأعظم رسله فضلا ، وأرفعهم درجة ، وأبينهم حجـة ، وأفصحهم بيانا ، وأعمهم رسالة ، وأسمحهم شريعة ، وأبقاهم معجزة .

ذلك هــو نبينا :

مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الْكَوْنَيْنِ وَالثَّقَلَيْـ

نِ وَالْفَرِيقَيْنِ مِنْ عُرْبٍ وَمِنْ عَجَمِ

صلى الله تبارك وتعالى عليه وآله وصحبه وسلم ، فلا نبي ولا رسول بعـــده إلى يـــوم الدين .

وقد من الله تبـارك وتعالى على أمته صلى الله تعالى عليـــه وعلى آله وصحبـه وسلم تكـريماً له وتفضيـــلا ، فجعلها أعظم الأمم فضـلا . وأهداها سبيـلا ، وأعدلها منهجا ، وأعظمها أجرا ، قال تبارك وتعالى :

(كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ) .

وقال تبارك وتعالى :

(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) .

بُشْرَى لَنا مَعْشَرَ الْإِسْلامِ : إِنَّ لَنا

مِنَ الْعِنايَةِ رُكْنًا غَيْـــرَ مُنْهَدِمِ

لما دَعا اللهُ داعِينــا لِطــاعَتِهِ

بِأَكْرَمِ الرُّسْلِ كُنَّا أَكْرَمَ الْأُمَمِ

فلا غرو أن سعـــدت الدنيا بوجــــوده ، وزها الوجـــود ببعثته ، واستنار الكون بنور رسالته وإشراق هدايتـه ،

و (الصبح بدا من طلعته) صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم :

كمال خلقته (صلى الله عليه وسلم)

هذا – ويجوز أن يحمل قول الناظم
(الصبح بدا من طلعته) على أنه إشارة إلى طرف
مما جبـــل عليه المصطفى صلى الله عليه وسلم
من كمال الخلقة وجمال الصورة .

وهو تلألؤ وجهه الشريف وإشراقه ، وبهاؤه وضياؤه .

فعن البراء بن عازب رضى الله عنه ، قال :

(كانَ رَسُولُ اللهِ صلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ :
أَحْسَنَ النَّاسِ ، وَجْهًا ، وأَحْسَنَهُمْ خُلُقًا)

(رواه الشيخان)

وعن هند ابن أبي هالة رضى الله عنه ، قال :

(كانَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ :
فَخْمًا مُفَخَّمًا ، يَتَلَأْلَأُ وَجْهُهُ الشَّرِيفُ
تَلَأْلُؤَ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ) .

(أخرجه الترمذى)

وعن الصديق رضى الله عنه ، قال :

« كانَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
كَدارَةِ الْقَمَرِ » .

(أخرجه أبو نعيم)

والدارة : الهالة التى حول القمر .

وعنِ الربيعِ بنت معوذ رضى الله عنها قالت :

« لَوْ رَأَيْتَهُ : لَرَأَيْتَ الشَّمْسَ طالِعَةً » .

(رواه الدارمى والبيهقى وأبو نعيم والطبرانى)

أى : لو رأيته لرأيت نوراً عظيماً بحيث تظن لما ترى من بهجة وجهه أن الشمس طالعة .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال :

« ما رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِن رَّسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِى فِى وَجْهِهِ » .

(رواه الترمذى والبيهقى وأحمد وابن حبان)

أى : إنه يتوهج كتوهج الشمس لحسنه وصفائه ، وإشراقه وضيائه .

وعن جابر بن سمرة رضى الله عنه وقد قال له رجل :

« أَكانَ وَجْهُ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِثْلَ السَّيْفِ ؟ !

فَقالَ : « لا ، بَلْ كانَ مِثْلَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ ، وَكانَ مُسْتَدِيرًا » . « رواه مسلم »

أى : مثلهما فى الاستدارة .

وعن أم معبد [عاتكة بنت خالد] فى بعض ما وصفته به صلى الله عليه وسلم لزوجها : « كانَ مُبَلَّجَ الْوَجْهِ » تعنى : مشرقه مضيئه .

وقد أجمع واصفوه صلى الله عليه وسلم من الصحابة على : أنه (كانَ أَزْهَرَ اللَّوْنِ) أَىْ : أَبْيَضَ مُنِيرًا مُشْرِقًا : بَياضًا مُشْرَبًا بِحُمْرَةٍ ،

ومنه قول أبي طالب فيه .

(وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمامُ بِوَجْهِهِ) .

قال في المواهب اللدنية . إن التشبيهات الواردة في صفاته صلى الله عليه وسلم إنما هي على عادة الشعراء والعرب ، وإلا ، فلا شيء منها يعادل صفاته الْخَلْقِيَّةِ والْخُلُقِيَّةِ . اه

يَقُولُونَ : يَحْكِي الْبَدْرُ فِي الْحُسْنِ وَجْهَهُ
وَبَدْرُ الدُّجَىٰ عَنْ ذٰلِكَ الْحُسْنِ يَنْحَطُّ

كَما شَبَّهُوا غُصْنَ النَّقا بِقَوامِهِ
لَقَدْ بالَغُوا فِي الْمَدْحِ لِلْغُصْنِ وَاشْتَطُّوا

لِمْ لا يُضِيءُ بِكَ الْوُجُودُ وَلَيْلُهُ
فِيهِ صَباحٌ مِنْ جَمالِكَ مُسْفِرُ ؟؟!

فَبِشَمْسِ حُسْنِكَ كُلُّ يَوْمٍ مُشْرِقٌ
وَبِنُورِ وَجْهِكَ كُلُّ لَيْلٍ مُقْمِرُ

* * *

فَهْوَ الَّذِي تَمَّ مَعْناهُ وَصُورَتُهُ
ثُمَّ اصْطَفاهُ حَبِيبًا بارِئُ النَّسَمِ

مُنَزَّهٌ عَنْ شَرِيكٍ فِي مَحاسِنِهِ
فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمِ

* * *

وصف شعْرِه (صلى الله عليه وسلم)

ثم قال الناظم : (وَاللَّيْلُ دَجا مِنْ وَفْرَتِـهِ)

صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم

(دجا) أظلم . ومنه ليلة داجية ، أى : مظلمة .

(والوفرة) بفتح الواو وسكون الفاء : شعر الرأس الواصل إلى شحمة الأذن ، وجمعها وِفار :

ولما وصف الناظم الوجه الشريف بالإشراق والضياء ، وجعل الصباح مستمداً نوره من نوره وإشراقه ، وصف شعره صلى الله عليه وسلم بالسواد ، وجعل الليل مستمداً سواده من حلكة شعره ، صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

وإذا اجتمع تلألؤ الوجه وحلكة الشعر ، كان غاية فى الحسن ، والجمال ، والبهاء ، والجلال ،

وفى التقابل فى البيت بين الصبح والليل ، والبدر والدجى ، والطلعة والوفرة من محسنات البديع مع الإبداع فى الوصف مالا يخفى على البليغ .

* * *

وقد كان شعر الرأس الشريف أسود فاحما ، لم يشبه فى الكبر بياض إلا قليلا من شعرات متفرقات .

فعن جابر بن سمرة رضى الله عنه :

(لَمْ يَكُنْ فِى رَأْسِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْه وَسَلَّمَ شَيْبٌ ، إِلَّا شَعَرَاتٍ فِى مَفْرِقِ رَأْسِهِ) .

(أخرجه مسلم والنسائى) .

وعن أنس رضي الله عنه :

(كانَ فِي لِحْيَتِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَعَراتٌ بِيضٌ) .

(رواه مسلم)

وعنه : (ما كانَ فِي رَأْسِهِ وَلِحْيَتِهِ إِلَّا سَبْعَ عَشَرَةَ أَوْ ثَمان عَشْرَةَ شَعْرة بَيْضاءَ) .

(رواه البيهقي)

وعنه : (ما عَدَدْتُ فِي رَأْسِ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِحْيَتِهِ إِلَّا أَرْبَعَ عَشْرَةَ شَعْرَةً بَيْضاءَ) .

(رواه الترمذي وغيره)

وعن ابن عمر رضي الله عنهما :

(إِنَّما كانَ شَيْبُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَحْوًا مِنْ عِشْرِينَ شَعْـرَةً بَيْضـاءَ) .

(رواه الترمذي) .

وإنما اختلفت الروايات في العـدد ، لبناء بعضها على العـد ، وبعضها على مجرد التقدير والحدس ، أو لاختلاف الأوقات .

* * *

وقـد وردت في وصف شعر رأسـه صلى الله عليه وآلـه وصحبه وسلم – من حيث الطول – روايات :

فعن أنس رضي الله عنه :

(كانَ شَعْرُهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أُذُنَيْهِ وَعاتِقِهِ) .

أي : فليس فيه ارتفاع ولا شدة استرسال ,

وفى رواية : (كان يَضرِبُ مَنْكِبَيْهِ)
أى : يصل إليهما .
وفى رواية : (إِلَىٰ أَنْصافِ أُذُنَيْهِ)
وعن عائشة رضى الله عنها :
(كانَ لَهُ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَعْرٌ فَوْقَ الْجُمَّةِ) .
(بضم الجيم وتشديد الميم) ودون الوفرة .
وعن ابن أبى هالة رضى الله عنه :
(يُجاوِزُ شَعْرُهُ شَحْمَةَ أُذُنَيْهِ ، إِذا هُوَ وَفَرَهُ) .
أى : جعله وفرة ؛ أى : مجموعا .
وعن البـراء بن عازب رضى الله عنـه :
(ما رَأَيْتُ مِنْ ذِى لِمَّةٍ ، أَحْسَنَ مِنْهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).
(بكسر اللام وتشديد الميم المفتوحة)
قال الحافظ العراقى : ورد فى شعره صلى الله عليه وسلم ثلاثة أوصاف.
« وَفْرَةٌ » ، وَ « لِمَّةٌ » ، وَ « جُمَّةٌ »
فالوفرة : ما بلغ شحمة الأذن ،
واللمة : ما نزل من شحمة الأذن ،
والجمة : ما نـزل عن ذلك إلى المنكبين ، وهو قول جمهور أهل اللغة . اهـ موضحا .
وجمع القاضى عياض بين هـذه الروايات بأن ما يلى الأذن هـو الذى يبلغ شحمة أذنيه ، وما خلفه هو الذى يضرب منكبيه ، أو ذلك لاختلاف الأوقات . إ هـ ملخصا .

* * *

فـــائدة

لشعره صلى الله عليه وسلم كسائر آثاره بركة عظيمة .
وكان الصحابة يتقاسمونه ، إذا حلقه ، تبركا به ،
وفى إقرارهم على ذلك دلـيل على مشروعية التبـرك بآثاره ،
وكان فى قلنسـوة خالد بن الوليد بعض من شعراته
صلى الله عليه وسلم ، وضعها فيها تيمنا بهـا ،
فلم يشهد بها قتالا إلا رزقه الله النصر ببركتها .

ثم قال الناظم :

(فاقَ الرُّسْـلَ فَضْلًا وَعَلا)

صلى الله تبارك وتعالى عليه وآله وصحبه وسلم .

(علا) فعل ماض معطوف على فاق . يقال : علا يعلو علواً ، فهو علىّ ، إذا ارتفع ، أى : فاق الرسل وعلاهم فضلا ، أو مصدر معطوف على « فضلا » ، من قولهم عَلِيَ فى المكارم كرضى عُلًا إذا شرف وارتفع . أى : فاق الرسل فضلا ورفعة ، أو اسم مقصور من العلاء كسماء بمعنى الرفعة معطوف على « فضلا » . أى : فاقهم فضلا وعلاء . والمعنى فى الكل متقارب .

فضل الرسل عليهم الصلاة والسلام
على سائر الخلق

واعلم أن الرسل عامة أطهر عباد الله قلباً ،
وأزكاهم نفساً ، وأوفرهم علماً ،
وأرجحهم عقلا ، وأجملهم خلقاً ،
وأكملهم خلقاً وأرفعهم نسباً ،
وأكرمهم حسباً ، وأهداهم سبيلا ،
وأعظمهم فضلا ، فرتبتهم أشرف الرتب وأعلاها ،
ودرجتهم أرفع الدرجات وأسماها .
فطرهم الله على أشرف الخلال ،
وأنشأهم على غاية من الكمال ،
وعصمهم ، وطهرهم ،
وصفاهم ، واصطفاهم ،
وأيدهم حين بعثهم إلى خلقه بالمعجزات ،
وأمدهم بالكرامات .
وكان فضل الله عظيما ، ورحمته سابغة ،
إذ لم يترك عباده سدى ، من غير أدلاء صادقين ،
وأمناء ناصحين ، وأدلة وبراهين ،
وتبيان للحق ، والهدى ، والدين ،
(لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) .

فضله صلى الله عليه وسلم على جميع الرسل

وقد اقتضت حكمته تبارك وتعـالى ، أن يجعـل هؤلاء الصفوة درجات فى الفضل ؛ فقال تبارك وتعالى :

(وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ) .

وقال تبارك وتعالى :

(تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ) .

أى : بمواهب سنية ، وخصائص علية ، وفضائل كريمة ، ومناقب عظيمة ، فوق أصل النبوة والرسـالة ، لاستوائهم فيهما ، كالمؤمنين يستوون فى صفة الإيمان ، ويتفاوتون فى الطاعات ، بعـد الإيمان ، فكان أفضلهم ، أولو العزم من الرسل ، نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

وكان أعلى هؤلاء الأكرمين رتبة ، وأرفعهم درجـة ، وأعظمهم فضلا ، وأجلهم قدراً ، وأقربهم إلى الله زلفى ، هو سيد ولد آدم ، وخاتم النبيين (محمد) صلى الله عليه وسـلم كما قال تبارك وتعالى فى شأنـه :

(وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ) .

أى : رفع محمداً صلى الله عليه وسلم درجات ، على غيره من الرسل ، بعموم الدعوة ، وختم النبوة به ، وتفضيـل أمته على سائر الأمم ، وبالمعجزات الباهـرة ، والخصائص الوافرة ، التى لم تكن لأحد من الرسل قبله .

* * *

نبذة من معجزاته وخصائصه صلى الله عليه وسلم

ومعجزاته وخصائصه كثيرة ، مستفيضة شهيرة .

(منها) ما جمعه الله له من العلوم ، والمعارف ، والحكم ،
وخصه به من الاطلاع على جميع مصالح الدنيا والدين ،
ومعرفة أمور شريعته وقوانين ملته ، وسياسة أمته ، إلى يوم الدين ،
وعلمه بأخبار الأنبياء والرسل ، وبشرائعهم ، وكتبهم ،
وسيرهم ؛ وأيامهم ، وما كان من أممهم ،
ومن العقوبات على تكذيبهم ، ومحاجة أهل الكتابين ،
بما فى كتبهم ، وإعلامهم بأسرارها ، وأحكامها ،
وما كتمـــوه منها ، إلى غير ذلك .

مع أنه أمى لم يقرأ ، ولم يكتب ، ولم يجلس إلى معلم
ولم يرتحل إلى بلد آخر رحلة تعلم واستقصاء أخبار .

*(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ
وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ ، إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ)* .

*(وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا ،
مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ،
وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ،
وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)* .

فكان صلى الله عليه وسلم — وهو الأمى — معلم العلماء ،
وإمام الحكماء ، وقدوة الصالحين ،
ونبراس المهتدين ، فى كل عصر وزمان .

كَفاكَ بِالْعِلْمِ فِى الْأُمِّىِّ مُعْجِزَةً

فِى الْجاهِلِيَّةِ وَالتَّأْدِيبِ فِى الْيُتْمِ

(ومنها) : عصمة الله له من الناس ، وكفايته أذاهم ،
مع تسفيهه عقولهم ، ومحاربته لهم ،
وشدة حرصهم على النكاية به ،

فقال الله تبارك وتعالى : * (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) * .

وقال تبارك وتعالى : * (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) * .

وقال تبارك وتعالى :

* (وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا) * .

(ومنها) : القرآن العظيم ؛ وهو أعظم المعجزات على الإطلاق ، وسيأتى القول فيه .

(ومنها) : انشقاق القمر ، وتسليم الحجر ،
وسعى الشجر له ، وتكثير الطعام القليل بدعائه ،
ونبع الماء الكثير من بين أصابعه ببركته ،
وتسبيح الحصى فى كفه ،
وشق صدره الشريف ، وملؤه علماً وحكمة ،
وحنين الجذع ، ونطق الضب والذئب وشهادتهما برسالته ،
ونطق الجمل وشكواه له من كثرة عمله وقلة علفه :
والإسراء والمعراج فى بعض ليلة ،
وما خص به فيها من الحظوة فى الحضرة القدسية ،
والمناجاة ، والدنو ، والرؤية ، وإطلاعه
على ما شاء الله من الآيات الكبرى .

(ومنها) : جمعه صلى الله عليه وسلم بين الخلة والمحبة ، وإخبار الله بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، ووضع الوزر ، ورفع الذكر ، ونزول السكينة ، وتأييده بالملائكة ، وإيتاؤه السبع المثانى ، وصلاة الله تبارك وتعالى والملائكة عليه ، وأمر المؤمنين بها .

(ومنها) : فى الآخرة . المقام المحمود ، واللواء المعقود ، والحوض المورود ، والكوثر ، والوسيلة ، والفضيلة ، والدرجة الرفيعة ، وتفضيله وتشريفه بقبول شهادته لنفسه على أمته بالتبليغ دون بينة ، وتكريم أمته لأجله ، بقبول شهادتها على الأمم السابقة بتبليغ رسلهم إليهم ، كما قال تبارك وتعالى :

*(وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا
لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ،
وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا)* .

(ومنها) : ما فى حديث أبى هريرة رضى الله عنه . أنه صلى الله عليه وسلم :

(حين اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء ببيت المقدس وأثنى كل من إبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وداود ، وسليمان — عليهم الصلاة والسلام — على ربه) قال :

(كُلُّكُمْ أَثْنَىٰ عَلَى رَبِّهِ ،
وَأَنَا أُثْنِي عَلَى رَبِّي فَأَقُولُ :
« الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَرْسَلَنِي رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ،

وَكافَّةً لِلنَّاسِ بَشيرًا وَنَذِيرًا ،

وَأَنْزَلَ عَلَيَّ الْفُرْقانَ فِيهِ تِبْيانُ كُلِّ شَيْءٍ ،

وَجَعَلَ أُمَّتِي أُمَّةً وَسَطًا ،

وَجَعَلَ أُمَّتِي هُمُ الأَوَّلِينَ ، وَالْآخِرِين »

أَي : الأَوَّلُونَ فِي دُخُول الْجَنَّةِ ،

وَالْآخِرُونَ فِي الْوُجُودِ

- وَشَرَحَ لِي صَدْرِي ، وَوَضَعَ عَنِّي وِزْرِي ، وَرَفَعَ لِي ذِكْرِي ،

وَجَعَلَنِي فاتِحًا ، وَخاتِمًا -

فاتِحًا لِأَبْوابِ الرَّحْمَةِ عَلَى أُمَّتِهِ ، أَوْ لِبَصائِرِهِمْ ،

بِمَعْرِفَةِ الْحَقِّ ، وَالْإِيمانِ بِاللهِ ،

وَخاتَمًا لِلرُّسُلِ وَالْأَنْبِياءِ بَعْثًا . »

فقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام :

« بِهٰذا فَضَلَكُمْ مُحَمَّدٌ . »

أى : زاد عليكم فضلا .

(أخرجه أبو يعلى والبزار وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه والبيهقى) .

(ومنها) : ما فى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه ؛ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أَنا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيامَةِ ،

وبِيَدِي لِواءُ الْحَمْدِ وَلا فَخْرَ ،

وَما مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ : آدَم فَمَنْ سِواهُ إِلَّا تَحْتَ لِوائى ،

وَأَنا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلا فَخْرَ » .

وفى رواية أبى هريرة :

« وَأَوَّلُ شافِعٍ ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ . »

(رواه مسلم ، وأبو داود ، والترمذى)

وعن أنس رضى الله عنه : عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« أَنا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا إِذا بُعِثُوا ،

وَأَنا خَطِيبُهُمْ إِذا وَفَدُوا ،

وَأَنا مُبَشِّرُهُمْ إِذا أَيِسُوا . .

لِواءُ الْحَمْدِ بِيَدِي ،

وَأَنا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّى وَلا فَخْرَ . »

(رواه الترمذى) .

وعن أبى هريرة رضى الله عنه : عنه صلى الله عليه وسلم قال :

« وَأُكْسَى حُلَّةً منْ حُلَلِ الْجَنَّةِ ،

ثُمَّ أَقُومُ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ ،

لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلائِقِ

يَقُومُ ذٰلِكَ الْمَقامَ غَيْرِى . »

(رواه الترمذى)

وعنه : عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« وَأَطْمَعُ أَنْ أَكُونَ أَعْظَمَ الْأَنْبِياءِ

أَجْـرًا يَـوْمَ الْقِيامَةِ . »

وهذا ونحوه منه صلى الله عليه وسلم — كما فى « المواهب » — إنما هو إظهار لنعمة الله تبارك وتعالى عليه ،

وإعلام لأمته بقدر إمامهم ، ومتبوعهم عند الله ، وعلو منزلته لديه ، ليعرفوا نعمة الله تبارك وتعالى عليهم ، وعليه اهـ .

وقد قال تبارك وتعالى

* (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) * .

اعترافا بها ، وشكراً لله تبارك وتعالى عليها .

وعن أبى ذر وابن عمر وابن عباس وأبى هريرة وجابر بن عبد الله — رضى الله عنهم أجمعين — أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِى :

نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ،

وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ؛

فَأَيُّما رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِى أَدْرَكَتْهُ الصَّلاةُ فَلْيُصَلِّ ،

وأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِنَبِيٍّ قَبْلِى ،

وَبُعِثْتُ إِلَىٰ النَّاسِ كافَّةً ،

وَأُعْطِيتُ الشَّفاعَةَ » ..

والعدد هنا ليس للحصر ولذلك جاءت زيادات فى روايات أخرى .
ومنها ما فى رواية أبى هريرة :

« وَأُوتِيتُ جَوامِعَ الْكَلِمِ » .

وفى رواية :

« وَخُتِـمَ بِىَ النَّبِيُّـونَ » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم — حين كلمه بلا واسطة ليلة الإسراء — :

[أَعْطَيْتُكَ الْكَوْثَرَ ، وَجَعَلْتُ اسْمَكَ مَعَ اسْمِي .
يُنَادَى بِهِ فِي جَوْفِ السَّمَاءِ — أَيْ بَيْنَ الْمَلَائِكَةِ —
وَجَعَلْت الْأَرْضَ طَهُورًا لَكَ وَلِأُمَّتِكَ . .
(ومنه يعلم أن التيمم من خصائص هذه الأمة) ،
وَغَفَرْتُ لكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ،
فَأَنْتَ تَمْشِي فِي النَّاسِ مَغْفُورًا لَكَ ،
وَلَمْ أَصْنَعْ ذٰلِكَ لِأَحَـدٍ قَبْلَكَ ،
وَجَعَلْتُ قُلُوبَ أُمَّتِكَ مَصَاحِفَهَا ،
وجَعَلْتُ فِيهَا حِفْظًا لَمْ يَكُنْ فِي قُلُوبِ
الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ، فَحَفِظَتِ الْقُرْآنَ وَالسُّنَّةَ ، »
وَخَبَأْتُ شَفَاعَتَكَ ، وَلَمْ أَخْبَأْهَا لِنَبِيٍّ غَيْرِكَ] .

(ومنها) : سماحة شريعته ، ويسرها ، وخلوها ، من التكاليف الشاذة ، وما فيه حرج وعسر على أمته ، قال تبارك وتعالى :

(يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ ،
وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)

وقال تبارك وتعالى :

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ) .

وقال تبارك وتعالى :

(وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) .

وقال تبارك وتعالى فى وصف الذين آمنوا من أهل الكتابين :

* (الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ،
الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ،
يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ،
وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ،
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) * .

وقد كان من العقوبات فى الشرائع السابقة :
قطع الأعضاء الخاطئة ، وقطع موضع النجاسة ،
وقتل النفس فى التوبة ، وحرمة أكل الغنائم ،
وغير ذلك ، من التكاليف الشاقة ،

فوضع ذلك عن هذه الأمة فى شريعته صلى الله عليه وسلم .

(ومنها) : رفع المؤاخذة عن أمته ، بالخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه ، وما حدثت به أنفسها ولم تفعل ، وفى الحديث :

« رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ ، وَالنِّسْيانُ ،

وَما اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ »

وَفِيهِ : « وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ وَلَمْ يَعْمَلْها ،

لَمْ تُكْتَبْ لَهُ سَيِّئَةً » .

(ومنها) : تكريم أمته صلى الله عليه وسلم ،
بجعلها أكثر الأمم أجرا مع أنها أقل عملا وأقصر عمرا .

عن ابن عمر مرفوعا :

[إِنَّما بَقاؤُكُمْ فِيمَنْ سَلَفَ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ

كَما بَيْنَ الْعَصْرِ إِلَىٰ غُرُوبِ الشَّمْسِ ،

أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْراةِ التَّوْراةَ فَعَمِلُوا بِها ،

حَتَّىٰ إِذا انْتَصَفَ النَّهارُ عَجَزُوا ،

فَأُعْطُوا قِيراطًا قِيراطًا ،

ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ الْإِنْجِيلَ ،

فَعَمِلُوا بِهِ إِلى الْعَصْرِ ، ثُمَّ عَجَزُوا ،

فَأُعْطُوا قِيراطًا قِيراطًا ،

ثُمَّ أُوتِينا الْقُرْآنَ فَعَمِلْنا إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ ،

فَأُعْطِينا قِيراطَيْنِ قِيراطَيْنِ ،

فَقالَ : أَهْلُ الْكِتابِ « رَبَّنا أَعْطَيْتَ هٰؤُلاءِ قِيراطَيْنِ قِيراطَيْنِ ، وَأَعْطَيْتَنا قِيراطًا قِيراطًا ، وَنَحْنُ أَكْثَرُ عَمَلًا » .

قالَ :(هَلْ ظَلَمْتُكُمْ مِنْ أَجْرِكُمْ مِنْ شَيْءٍ ؟)

قالُوا : « لا . »

قالَ : (فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشاءُ .)]

وكل ذلك إنما فضلت به هذه الأمة على سائر الأمم ، كرامة لرسولها صلى الله تبارك وتعالى عليه وآله وصحبه وسلم الذى فضله الله على سائر الأنبياء والرسل .

فاقَ النَّبِيِّينَ فِي خَلْقٍ وَفِي خُلُقٍ
وَلَمْ يُدانُوهُ فِي عِلْمٍ وَلا كَرَمِ

وَكُلُّهُمْ مِنْ رَسُولِ اللهِ مُلْتَمِسٌ
غَرْفًا مِنَ الْبَحْرِ أَوْ رَشْفًا مِنَ الدِّيَمِ

وَوَاقِفُونَ لَدَيْهِ عِنْدَ حَدِّهِمُ
مِنْ نُقْطَةِ الْعِلْمِ أَوْ مِنْ شَكْلَةِ الْحِكَمِ

وصفه صلى الله عليه وسلم فى التوراة

روى البخارى فى « البيوع » عن عطاء بن يسار الهلالى ، قال :

لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما ،

فقلت : « أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) » .

قال : « أجل ، والله إنه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن :

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ،

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ،

وَحِرْزًا لِلأُمِّيِّينَ (٢) ..

أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي ، سَمَّيْتُكَ الْمُتَوَكِّلَ :

لَيْسَ بِفَظٍّ وَلَا غَلِيظٍ وَلَا سَخَّابٍ فِي الْأَسْوَاقِ (٣) ،

وَلَا يَدْفَعُ بِالسَّيِّئَةِ السَّيِّئَةَ ، وَلَكِنْ يَعْفُو وَيَغْفِرُ .

وَلَنْ يَقْبِضَهُ اللهُ حَتَّى يُقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ (٤) ،

بِأَنْ يَقُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ،

وَيَفْتَح بِهِ أَعْيُنًا عُمْيًا ، وَآذَانًا صُمًّا ، وَقُلُوبًا غُلْفًا ،

أُسَدِّدُهُ بِكُلِّ جَمِيلٍ ، وَأَهَبُ لَهُ كُلَّ خُلُقٍ كَرِيمٍ ،

ثُمَّ أَجْعَلُ السَّكِينَةَ لِبَاسَهُ ، وَالْبِرَّ شِعَارَهُ ،

---

(١) أى : فى التوراة . (٢) حصنا .

(٣) لا يكثر الصياح فيها لسوء خلقه .

(٤) (ملة إبراهيم التي غيرتها العرب عن استقامتها) .

وَالتَّقْوَىٰ ضَمِيرَهُ ، وَالْحِكْمَةَ مَعْقُولَهُ ،
وَالصِّدْقَ وَالْوَفَاءَ طَبِيعَتَهُ ، وَالْعَفْوَ وَالْمَعْرُوفَ خُلُقَهُ ،
وَالْعَدْلَ سِيرَتَهُ ، وَالْحَقَّ شَرِيعَتَهُ ، وَالْهُدَىٰ إِمامَهُ ،
وَالإِسْلامَ مِلَّتَهُ ، وَأَحْمَدَ اسْمَهُ .
أَهْدِىٰ بِهِ بَعْدَ الضَّلالَةِ ، وَأُعَلِّمُ بِهِ بَعْدَ الْجَهالَةِ ،
وَأَرْفَعُ بِهِ بَعْدَ الْخَمالَةِ (١) ،
وَأُسَمِّىٰ بِهِ بَعْدَ النُّكْرَةَ (٢) .
وَأُكْثِرُ بِهِ بَعْدَ الْقِلَّةِ ،
وَأُغْنِى بِهِ بَعْدَ الْعَيْلَةِ (٣) ،
وَأَجْمَعُ بِهِ بَعْدَ الْفُرْقَةِ ،
وَأُؤَلِّفُ بِهِ بَيْنَ قُلُوبٍ مُخْتَلِفَةٍ ،
وَأَهْواءٍ مُتَشَتِّتَةٍ وَأُمَمٍ مُتَفَرِّقَةٍ ،
وَأَجعَلُ أُمَّتَهُ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » اهـ مواهب .

---

(١) (أجعل به الدين والتوحيد — بعد ما ترك فى الفترة — مشهوراً شائعاً) .

(٢) (أعرِّف الناس بسببه ، ما جهلوه من التوحيد أو من الأنبياء)

(٣) (الفقر) .

تخصيصه بالمعجزة الخالدة الكبرى

عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

« ما مِنَ الْأَنْبياءِ نَبِيٌّ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ

مِنَ الْآياتِ ما مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ ..

وَإِنَّما كانَ الَّذِي أُوتِيتُهُ وَحْيًا أَوْحَىٰ اللَّهُ إِلَيَّ ،

فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تابِعًا يَوْمَ الْقِيامَةِ » (١) .

قال القاضى عياض : (ومعنى هذا الحديث عند المحققين : بقاء معجزته المذكورة ما بقيت الدنيا ، يقف عليها قرن بعد قرن ، عيانا لا خبرا إلى يوم القيامة ، وسائر معجزات الأنبياء ذهبت للحين ، ولم تبق بعدهم ، ولم يشاهدها إلا الحاضرون . بخلاف من حضر بعدهم ، فإنهم لا يعرفون إلا أخبارها) إه بتصرف .

ومعجزة القرآن أعظم المعجزات على الإطلاق قدراً ، وأبهرها إعجازا ، وأدومها بقاء ، لم يؤت رسول مثلها ؛ إذ هو كلام الله المنزل على عبده وخاتم رسله ، وأفضل خلقه محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، آيات بينات ، وبراهين ساطعات ، وأحكاما وحكما وأمثالا ، وعظات بالغات ، وهدى ونوراً ، وفرقانا بين الحق والباطل ، وحجة قائمة : ودعوة خالدة ، ورسالة عامة إلى الخلق كافة .

---

(١) أى : ما من نبى من الأنبياء إلا قد أعطاه الله الأمر المعجز الذى آمن به البشر ، وإنما كان الذى أوتيته كلاما موحى به من الله تبارك وتعالى ، زدت به على الأنبياء ، فهو مخلد فى صحائف الدهر ، يعرف فى كل زمان ، ولذا قال : « فأرجو أن أكون » بسببه « أكثرهم تابعا يوم القيامة » لبقائه وكثرة من يؤمن به .

(أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلتْ مِنْ لدُنْ حَكِيمٍ خبيرٍ) .

لَها مَعانٍ كَمَوْجِ الْبَحْرِ فِى مَدَدٍ
وَفَوْقَ جَوْهَرِهِ فِى الْحُسْنِ وَالْقِيَمِ

فما تُعَـدُّ وَلاَ تُحْصَىٰ عَجائِبُها
وَلاَ تُسامُ عَلَىٰ الْإِكْثارِ بِالسَّأَمِ

قَرَّتْ بِهـا عَيْنُ قارِيها فَقُلْتُ لَهُ
لَقَـدْ ظَفِرْتَ بِحَبْلِ اللهِ فَاعْـتَصِمِ

وهو القرآن العظيم ، المحفوظ فى الصدور ، المكتوب فى المصاحف المقروء باللسان العربى المبين ، فى كل زمان ومكان إلى يوم الدين ، المنادى بعجز البشر كافة عن الإتيان بمثله ، بل بمثل أقصر سورة منه ، بعد التحدى .

قال تبارك وتعالى :

*(قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ
عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ،
وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا)*

وقال تبارك وتعالى :

*(وَإِنْ كُنْتُمْ فِى رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ ،
وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ *

فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا ، وَلَنْ تَفْعَلُوا فاتَّقوا النَّارَ
الَّتِي وَقودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

وفى آياته المعجزة يقول الإمام البوصيرى :

رَدَّتْ بَلاغَتُها دَعْوَىٰ مُعارِضِها
رَدَّ الْغَيُورِ يَدَ الْجانِى عَنِ الْحُرَمِ

وهو الكتاب المحكم الذى :

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ
تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) .

المحفوظ من التصحيف والتحريف ، والزيادة والنقص ، بقدرة منزله تبارك وتعالى وكلاءته . كما قال تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ ، وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

* * *

ومعجزة القرآن الكبرى أقوى المعجزات دلالة على تفضيل نبينا صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم على جميع الرسل ، لبقائها وخلودها ، كثرة آياتها ، فهى معجزات متعددة ، متواترة مشهودة ، باقية على وجه الدهر :

دامَتْ لَدَيْنا فَفاقَتْ كُلَّ مُعْجِزَةٍ
مِنَ النَّبِيِّينَ إِذْ جاءَتْ وَلَمْ تَدُمِ

ما يســوغ من المفاضلة بين الرســل

علم – مما سبق – أن تفضيله صلى الله تبارك وتعالى عليه وآله وصحبه وسلم على جميع الأنبياء والرسل بما أكرمه الله بـه من عظيم ألطافه ، وخصه به من تحف إنعامه قد دلّ عليه الكتاب ، وصحت به الأخبار ، وأجمعت عليه الأمة ، وقامت عليه ناصعات الأدلة .

فإذا عورض هذا بما ورد فى بعض الأحاديث من النهى عن التفضيل نحو قوله صلى الله عليه ، وآله وصحبه ، وسلم :

« لا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِياءِ » ..

وفى رواية :

« لا تُفَضِّلُونِى عَلَىٰ الْأَنْبِياءِ » ..

وقوله صلى الله عليه وآله وصحبه ، وسلم :

« لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ :

أَنا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّىٰ » ..

فمع ضعفه عن معارضة ما ذكر ، محمول – كما فى «الشفاء» وغيره – على التفضيــل على وجه يؤدى إلى تنقيص المفضــل عليهم ، والغض من شأنهم ، والحط من قدرهم ، دون التفضيل بزيادة الأحوال السنية ، والكرامات والرتب العليــة ، واللطائف والهبات الربانية ، مع التوقير والتعظيم للمفضــل عليهم : إجمالا وتفصيــلا ؛ فإن ذلك واضــح ، وحق واقع ، كما فى تفضيل أولى العــزم من الرسل على سائرهم ، وتفضيل نبينا صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم على سائر أولى العزم ، صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين .

كيف وآياته ومعجزاته ــ كما في « المواهب » ــ أظهر وأبهر ، وأقوى وأبقى ، وأكــثر ، ومنصبه أعلى ، ودولته أعظم وأوفر ، وذاته أفضل وأطهر ، وخصوصياته على جميعهم أشهر من أن تذكر ، فدرجته صلى الله تبارك وتعالى عليه وآله وصحبه وسلم أرفع من درجات المرسلين ، وذاته أزكى وأفضل من سائر المخلوقين .

* * *

(فــائدة)

جاء في الخبر أن عدد الأنبياء مائة ألف وأربعــة وعشرون ألفاً ، وعدد الرســل ثلاثمائة وثلاثة عشر ، منهم من ذكر باسمه في القرآن ، ومنهم من لم يذكر .

ثم قال الناظم :

(كَنْــزُ الْكَــرَمِ مُولِي النِّعَــمِ)

[صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

(الكنز) المال العظيم .

(الكرم) الإنفاق بطيب النفس فيما يعظم خطره ونفعه .

(مولى النعم) تطلق النعمة على المال . وعلى الصنيعة والمنة ، ويقال : أوليت فلاناً أمراً، بمعنى : أسديته خيراً .. وأوليته معروفاً : أسديته إليه . والإنعام يكون من الله تبارك وتعالى ، ومن العبد قال تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ : أَمْسِــكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ﴾ .

فمعنى مولى النعم : مســدى النعم والعطايا ، وذلك من عظيم الكرم وحسن الخلق .

أخلاقه الكريمة (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم)

وقد كان صلى الله عليه وسلم مجبــولا على الأخلاق الكريمة الزكية فى أصل خلقته الشريفة النقية ، لم يحصل له ذلك برياضة ، بل بجود إلهى ، ومنح ربانى ، ولهــذا لم تزل تشرق أنوا المعــارف فى قلبه ، حتى وصل إلى الغاية القصوى والمقام الأسنى .

وكان صلى الله عليه ، وآله وصحبه ، وسلم يقول فى دعائه :

« اللَّهُمَّ كَمَا حَسَّنْتَ خَلْقِي ، فَحَسِّنْ خُلُقِي » .

(أخرجه أحمد ، وصححه ابن حبان) .

وفى الحديث : « بُعِثْتُ لِأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلاقِ » .

وقد اجتمع فيه صلى الله عليه وسلم من حسن الخلق وحسن الخلق ، وصفات الكمال وشريف الخلال ، ما لا يحيط به حدّ ولا يحصره عدّ ، فجميع الأخــلاق الحميدة كانت فيه صلى الله عليه وآله وصحبه وسـلم ، كيف ولا قــد تأدب بالقرآن ، فكل ما استحسنه القرآن وأثنى عليه ، ودعا إليه عمله : وتحلى بـه ، وكل ما استهجنه القرآن ونهى عنـــه : تجنبه وتخلى عنه ، فكان خلقه القرآن ، كما قالت عائشة رضى الله عنها .

وقد قال تبارك وتعالى فى شأنه :

(وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ) .

وقال تبارك وتعالى :

*(وَأَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ،
وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ،
وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عَظِيما)* .

وحسبه ذلك منقبة وفضلا وتفضيلا .

كرمه وجوده (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم)

ومن شمايله (١) صلى الله عليـه وسلم : الكرم والجود ، وإسداء المعروف ، والبر والإحسان والمواساة ، والإيثار ، وجبـر الكسر ، ورأب الصدع ، والرأفة والرحمة بالمؤمنين . فكان صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أكرم الناس ، وأجودهم وأسخاهم بالمال والعطايا .

عن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنه :

(ما سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ قَط ، فَقالَ : « لا » .)

(رواه الشيخان) .

وعن أنس رضى الله عنه :

(كانَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ ، وَأَجْوَدَ النَّاسِ ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ) .

(رواه الشيخان) .

وعنـه :

(ما سُئِلَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلمَ شَيْئًا إِلَّا أَعْطاهُ ، فَجاءَ رَجُلٌ « هُوَ : صَفْوانُ بْنُ أُمَيَّةَ » ، فَأَعْطاهُ غَنَمًا بَيْنَ جَبَلَيْنِ ، فَرَجَعَ إِلَىٰ قَوْمِهِ ، وَقالَ : « يا قَوْمِ أَسْلِمُوا ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا يُعْطِي عَطاءَ مَنْ لا يَخافُ الْفَقْرَ » .)

(رواه مسلم) .

---

(١) اقتصرنا فى بيان الشمايل والمعجزات على ما أشار إليه الناظم ، وما لم نذكره يطلب من مظانه .

قال ابن شهاب الزهريُّ : (أعطاه صلى الله عليه وسلم من الغنم مائة ، ثم مائة) .

وفى « مغازى » الواقدى : أن النبى صلى الله عليه وسلم أعطاه يومئذ وادياً مملوءاً إبلا ونعماً ، وفى رواية : إبلا ، وغنماً » فقال : « اشهدوا ، ما طابت بهذا إلا نفس نبى ! » وأسلم .

وروى الترمذى أنه حمل إليه صلى الله عليه وسلم تسعون ألف درهم ، فوضعت على حصير ، ثم قام إليها فقسمها ، فما ردّ سائلا حتى فرغ منها .

وعن أنس رضى الله عنه :

[أَن رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُتِىَ بِمالٍ

مِنَ الْبَحْرَيْنِ ، قِيلَ : إِنَّهُ مِائَةُ أَلْفِ دِرْهَمٍ ،

وَكانَ أَكْثَرَ مالٍ أُتِىَ بِهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،

فَخَرَجَ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ ، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهِ

فَلَمَّا قَضَىٰ الصَّلاةَ ، جاءَ فَجَلَسَ إِلَيْهِ ، فَما كانَ يَرَىٰ

أَحَدًا إِلَّا أَعْطاهُ ، إِذْ جاءَهُ الْعَبَّاسُ فَقالَ :

« يا رَسُولَ اللهِ أَعْطِنِى ، فَإِنِّى فادَيْتُ نَفْسِى وَفادَيْتُ عَقِيلًا » ،

فَقالَ : « خُذْ » ، فَحَثَىٰ فِى ثَوْبِهِ ، ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ

فَلَمْ يَسْتَطِعْ فَقالَ : « يا رَسُولَ اللهِ . مُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ عَلَىَّ » ،

قالَ : « لا » ، قالَ : « فَارْفَعْهُ أَنْتَ عَلَىَّ » ، فَقالَ : « لا » ،

فَنَثَرَ الْعَبَّاسُ مِنْهُ (طَرَحَ) ، ثُمَّ ذَهَبَ يُقِلُّهُ فَلَمْ يَسْتَطِعْ ،

فقالَ : « يا رَسُولَ اللهِ . مُرْ بَعْضَهُمْ يَرْفَعْهُ عَلَيَّ ؟ »
قالَ : « لا » ، قالَ : « فَارْفَعْهُ أَنْتَ عَلَيَّ » ، قالَ : « لا » ،
فَنَثَرَ مِنْهُ ، ثُمَّ احْتَمَلَهُ فَأَلْقاهُ عَلَىٰ كاهِلِهِ ، فَانْطَلَقَ ،
ثمَّ انطَلَقَ ، وَهُوَ يَقُولُ : « إِنَّما أَخَذْتُ ما وَعَدَ اللهُ ، فَقَدْ أَنْجَزَ » .)

يشير إلى قوله تبارك وتعالى :

*(إِنْ يَعْلَمِ اللهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا
يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ)* .

فَما زالَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُتْبِعُهُ بَصَرَهُ
حَتَّى خَفِيَ عَلَيْنا : عَجَبًا مِنْ حِرْصِهِ .] اهـ

(رواه البخاری) .

وقد كان جوده صلى الله عليه وسلم كله لله ، وفی ابتغاء مرضاة الله ، فإنه كان يبذل المال تارة لفقير أو لمحتاج ، وتارة فی سبيل الله ، وتارة يتألف به على الإسلام ، من يقوى الإسلام بإسلامه .

وكان يؤثر على نفسه وآل بيته ، ولا يدخر شيئاً لغده ، فيعطی عطاء يعجز عنه الملوك ، ويعيش فی نفسه عيشة الفقراء ، فيأتی عليه الشهر والشهران لا يوقد فی بيته نار ، وربما ربط الحجر على بطنه من شدة الجوع .

وأتاه سبی . فشكت إليه بنته (السيدة فاطمة رضی الله عنها) ما تلقى من خدمة البيت ، وطلبت منه خادما يكفيها مئونة بيتها ، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد ، وقال :

« لا أُعْطِيكِ وَأَدَعُ أَهْلَ الصُّفَّةِ تَطْوَى بُطُونُهُمْ مِنَ الْجُوعِ . »

(رواه البخاری) .

هـــداية الأمم بشريعتـــه

ثم قال الناظم :

(هـــادى الأمــــم بشريعـــــــــته)

صلى الله عليـــه وسلم

ألممنا فى شرح البيت السابق إلى هدايته صلى الله عليه وسلـــم الناس إلى الحق والخير ، بدلالتهم على سبلهما عامة ، ونزيد هنا أنه صلى الله عليه وسلم قد هدى الناس إلى الصراط المستقيم ، بشريعتـــه الحكيمة السمحة ، فقد بعث داعيا إلى الحق ، معلماً للعباد ما شرعه الله لهم من الدين والأحكام ، والآداب والفضائل الإنسانية ، وما به سعادة الآخرة والأولى ، مقيماً لكل ذلك بمقاله وأعماله ، وهديه وأحـــواله ، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ، ونشر العلم والحكمة والهداية ، وطهر القلوب من الوثنية وأدناس الجاهلية ، وأقام ملة التوحيـــد وبراهينه ، والشرع وحكمه وأحكامه ، وأوضح السبـــل وحدد المعالم ، وحث وحذر ، وبشر وأنذر ، وجاهد فى الله حق الجهاد ، قال تبارك وتعالى :

(وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ) .

فاهتدى السعداء من الناس بشريعتـه ، واستقاموا على جادته ، واستظلوا برايته ، واستضاؤا بنور هدايته ، ودخلوا فى دين الله أفواجا ، بقلوب مؤمنة واعية ، وألسنة صادقة ، بالحق ناطقة ، وعزائم قوية يحملون راية التوحيد وعلم الإسلام ، وينشـــرون دعوته ، ويقيمـــون حجته ، ويشيدون صروحه سامقة متينة ، منيعة حصينة فى أقطار الأرض ، وفى أمم كثيرة هداها الله به بعـــد ضلال وجحود ، وجهالة وجمود ، وفتح به مغاليق قلوبهم ، حتى أشرق فيها نوره الوضاء . ورسخت فيها عقيدة التوحيد الخالص ، وتعاليم الإسلام الحنيف .

أولئك السعداء ، الذين استجابوا لدعوته ، هم ذوو الفطر السليمة والعقول الراجحة ، والاستعداد الذاتي لقبول الحق والهداية .

انشرحت صدورهم للإسلام ، فآمنوا وصدقوا :

(وَهُدُوا إِلَىٰ الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ) .

(أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

وأما أولئك الذين أعرضوا عنه وتولوا فما حال بينهم وبين ذلك النور الساطع والحق الأبلج إلا سوء الاستعداد، وفساد الفطرة، وجمود العقل

(فَعَمُوا وَصَمُّوا)

وضلوا وأضلوا

*(وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ ،
وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ)* .

(فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ) .

*(إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ،
وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ)* .

وقد قال الله تبارك وتعالى في شأن هؤلاء لنبيه صلى الله عليه وسلم :

(مَا عَلَىٰ الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ) .

*(فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ،
وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ)* .

(لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ ، وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) .

﴿ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ *
إِلَّا مَنْ تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ *
فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ *
إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴾ .
﴿ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا ،
حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ .

* * *

ثم قال الناظم :

(أَزْكَىٰ النَّسَبِ أَعْلَىٰ الْحَسَبِ)

صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

(النسب) القرابات من جهة الآباء ، أو من جهة الأبوين ؛
(الحسب) الشرف الثابت فى الآباء ، أو ما يعد من مفاخرهم ، أو الفعال الطيبة الجميلة .

شــرف نسبه (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم)

ونسبه صلى الله عليه وسلم : أطهر الأنساب وأشرفها ، إذ هو نخبة بنى هاشم ، وسلالة قريش ، وصميمها ، وأشرف العرب وأعزهم نفراً من قبل أبويه .

فأبوه هو : عبد الله ، بن عبد المطلب ، بن هاشم ، بن عبد منا ف ، ابن قصى ، بن كلاب ، بن مـرة ، بن كعب ، بن لؤى ، بن غالب ، ابن فهر ، بن مالك ، بن النضر (وهو قريش) بن كنانة ، بن خزيمة ، ابن مدركة ، بن إليـاس ، بن مضر ، بن نزار ، بن معد ، بن عدنان ..

وينتهى نسب عدنان إلى إسماعيل الذبيح بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة و السـلام

وأمه صلى الله عليـــه وسلم هى : السيدة آمنـــة ، بنت وهب ، بن عبد مناف ، بن زهرة ، بن كلاب ، بن مرة ، فيجتمع أبواه فى كلاب ابن مرة ، جده الخامس لأبيه ، والرابع لأمه صلى الله عليه وسلم :

* * *

نسب شريف، طاهر زكى ، تنقل فيه صلى الله عليه وسلم من الأصلاب الكريمة إلى الأرحام الطاهرة من آدم وحواء إلى عبد الله وآمنة حتى أخرجه الله طاهراً مطهراً زكياً شريفا ، لم يلتق فيـــه آباؤه وأمهاته على سفاح قط ، كما فى حديث ابن عباس ، بل على طهر وعفاف وشرف فعال .

روى أبو هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

« بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ ، قَرْنًا فَقَرْنًا ، حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ مِنْهُ » .

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه ، قال :
قال النبي صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ اللّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ قَرْنِهِمْ ..
ثُمَّ تَخَيَّرَ الْقَبائِلَ فَجَعَلَنِي ، مِن خَيْرِ قَبِيلَةٍ ..
ثُمَّ تَخَيَّرَ الْبُيُوتَ ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ بُيُوتِهِمْ ..
فَأَنا خَيْرُهُمْ نَفْسًا ، وَخَيْرُهُمْ بَيْتًا » .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما أنه صلى الله عليه وسلم قال :

« إِنَّ اللّهَ عَزَّ وَجَلَّ اخْتارَ خَلْقَهُ ، فَاخْتار مِنْهُمْ بَنِي آدَمَ ..
ثُمَّ اخْتارَ بَنِي آدَمَ ، فَاخْتارَ مِنْهُمُ الْعَرَبَ ..
ثُمَّ اخْتارَ الْعَرَبَ ، فَاخْتارَ مِنْهُمْ قُرَيْشًا ..
ثُمَّ اخْتارَ قُرَيْشًا ، فَاخْتارَ مِنْهُمْ بَنِي هاشِم
ثُمَّ اخْتارَ بَنِي هاشِم ، فَاخْتارَنِي مِنْهُم ..
فَلَمْ أَزَلْ خِيارًا مِنْ خِيارٍ » .

خَيْرُ الْأُبُوَّةِ حازَهُمْ لَكَ آدَمُ
دُونَ الْأَنامِ وَأَحْرَزَتْ حَوَّاءُ ؟!

فأى نسب أزكى وأطهر وأشرف من هذا النسب الشريف ؟ !

شــرف حسبه (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم)

وقد جمع الله لرسوله صلى الله عليـــه وسلم – إلى شرف النسب – شرف الحسب ، ذلك أن جـده الأعلى نبى الله إبراهيم الخليـــل عليه السلام ، وهو الذى بنى بمكة – بأمر الله تبارك وتعالى – البيت الحرام (الكعبة المشرفة) وعاونه ابنه نبى الله إسماعيل ، أبو العرب الذى ينتهى إليه النسب الشريف .

قال تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

وقد استجاب الله دعوته فبعث فيهم ومنهم النبى العربى الأمى محمداً صلى الله عليه وسلم .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ .

فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ ،
وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ، وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ
حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا ، وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ، وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنْ طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ . وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ... ﴾

وقال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ ، وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ .

فكان البيت الحرام محجاً معظماً ، ومنسكاً محرماً ، منذ القدم . تولى أمره إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، ثم تولاه بعده بعض أبنائه ما شاء الله أن يتولاه ، ثم تولته جرهم حيناً من الدهر ، حتى إذا ما بغوا

بمكة واستحلوا حرماتها ، وحرمة البيت المعظم انتزعت خزاعة الولاية منهم وتوارثوها كابراً عن كابر ، حتى كان آخرهم حليـل بن حبشـية ابن سلول الخزاعى ، فزوج ابنتـه حبىٰ : قصىّ بن كلاب القرشى ، (الجد الرابع للرسول صلى الله عليـه وسلم) ، ثم مات ، فرأى قصى أن قريشا — وهم نخبـة ولد إسماعيل عليه الصلاة والسـلام — أحق من خزاعة بولاية البيت الحرام وأمر مكة ، فتغلب عليها بعـد وقائع ، وتولى أمر البيت ومكة وأطاعه قومه ، وقام فيهم خير مقام ، فكانت له : الحجابة ، والسـقاية ، والرفادة ، ودار الندوة ، والقيادة ، واللواء ، وحاز شرف مكة كله ، وتوارث ذلك أبناؤه من بعـده ، حتى انتهى الأمر إلى (عبد المطلب) جد النبى صلى الله عليه وسلم (سـيد قريش وشريفها) وأقام لقومه ما كان آباؤه يقيمـون قبله لقومهم من أمرهم ، وشرُف فى قومه شرفا لم يبلغه أحد من آبائه ، وأحبه قومه وعظم خطره فيهم ، وكان له عشرة من الأبناء . كلهم سادة أمجاد ، أحبهم إليه (عبد الله) أبو النبى صلى الله عليه وسلم (١) .

فأى حسب أعلى وأرفع من هذا الحسب العظيم ؟!

فلا غرو أن كان الرسول صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم (أزكى النسب ، أعلى الحسب) من جميع ذوى الأنساب والأحساب الزاكية الطاهرة الشريفة ..

ثم قال الناظم :

كُـلُّ الْعَـرَبِ فِى خِدْمَتِـهِ

صلى الله عليه وسلم .

(الخدمة) هنا : الطاعة والامتثال مع التعظيم والإجلال .

---

(١) انظر سيرة ابن هشام .

طاعة الرسول وتعظيمه (صلى الله عليه وسلم)

لما بعث صلى الله عليه وسلم داعيا إلى توحيد الخالق بالعبادة ، ونبذ عبادة الأصنام ، وضلالات الجاهلية وتقاليدها ، هاديا إلى الخير والصلاح فى أمور الدين والدنيا ، استجاب له أرباب البصائر من العرب الذين بعث فيهم ، وأذعنوا له وأطاعوا ، فخرجوا من ظلمة الجهالة إلى نور العلم والمعرفة ، ومن الغواية إلى الرشد والهدى ، وجاهدوا فى سبيل الله تحت لوائه صلى الله عليه وسلم ، يستعذبون الموت ويستبقون إليه ، إعلاء لكلمة الله ونصرة لدينه ، ورجاء فيما وعد الله المجاهدين من الحياة السرمدية . والنعيم المقيم ، قال تبارك وتعالى :

(قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَىٰ اللَّهِ : عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي).

*(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ

وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ)* .

(مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَىٰ الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ، تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا ، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ) .

فكانوا لله دعاة ، وللإسلام أنصاراً ، وللحق حماة ، وفى العلم والعرفان أئمة ، وعلى الخير والفضائل أدلاء ، وفى الله إخوة أحباء .

وكان صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم أحب إليهم من أنفسهم وأولادهم وأموالهم والناس أجمعين ، وكانوا فى طاعتهم وامتثالهم لأمره ، وتعظيمهم وتوقيرهم له ، ووقوفهم عند الحدود التى حدها لهم : مثلا بالغ الغاية عن اقتناع ويقين ، وحب فى الله قوى متين ، أفعم القلوب وملأ الحواس والمشاعر .

لا يشذ عن ذلك إلا جاحد معاند ، أو منافق مداهن أثيم !

وما لحق النبى صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى — بعد ثلاث وعشرين سنة من بعثته — حتى طهر البيت الحرام ومكة وجزيرة العرب من الأصنام والشرك والآثام ، وأقام فيها معالم الإسلام ، وكون دولة إسلامية قوية عادلة ، وأمة حنيفية حية متكاملة ، على المحجة البيضاء والصراط المستقيم لا تحيد عنه ولا ترضى سواه ، أحيت بهداها كثيرا من الأمم . وخفقت راياتها فوق غال من القمم . وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

فلتهنأ أمة العرب بما خصها الله به ، وفضلها على سائر الأمم ببعث رسول البشرية كافة منهم ، وفيهم ، وباستجابتهم أول الناس لدعوته ، ونصرهم دين الله تحت رايته .

وقد قال صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم فيهم — فيما رواه ابن عمر رضى الله عنهما — :

« أَلا مَنْ أَحَبَّ الْعَرَبَ ، فَبِحُبِّى أَحَبَّهُمْ ..

وَمَنْ أَبْغَضَ الْعَرَبَ ، فَبِبُغْضِى أَبْغَضَهُمْ » .

ثم لتهنأ أمة محمد صلى الله عليه وسلم عامة بما خصها الله به من الفضائل ، تكرمة له ، فعن ابن عباس رضى الله عنهما :

[ثَمانِ آياتٍ فِى سُورَةِ النِّساءِ : خَيْرٌ لِهٰذِهِ الأُمَّةِ مِمَّا طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ وَغَرَبَتْ :

(يُرِيدُ اللهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ) .

(وَاللهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ) .

(يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُخَفِّفَ عنكُمْ) .

*(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ
نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا)* .

*(إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ
وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)* .

*(إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ، وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا
وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا)* .

*(وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللهَ
يَجِدِ اللهَ غَفُورًا رَحِيمًا)* .

*(مَا يَفْعَلُ اللهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ ،
وَكَانَ اللهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)* .

فالحمد لله رب العالمين :

ذلك ما يشير إليه الناظم بقوله :

كُلُّ الْعَرَبِ فِى خِدْمَتِهِ

صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم

وظاهر أن المراد بالعرب جمهورهم ، وإنما خصهم بالذكر لكونهم أول من استجاب للدعوة ، وجاهد فى سبيلها ، وإلا فالمؤمنون جميعاً فى طاعته وتعظيمه — صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم — سواء :

من معجزاته (صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم)

ثم قال الناظم :

سَعَتِ الشَّجَرُ نَطَقَ الْحَجَرُ

شُقَّ الْقَمَرُ بِإِشَارَتِهِ

مشيراً إلى ثلاث معجزات من معجزاته الباهرة صلى الله عليه وسلم :

تمهيد

اعلم أن المعجزة هى : الأمر الخارق للعادة ، الذى يجريه الله تبارك وتعالى على يد رسوله تصديقاً له فى دعوى الرسالة ، وسماها القرآن : آية وبرهانا ، كإحياء الموتى معجزة لعيسى ، وقلب العصى حية معجزة لموسى ، وإخراج ناقة من صخرة معجزة لصالح ، ومجىء الشجر وتسليم الحجر ، وانشقاق القمر ، والإسراء والمعراج : معجزات لنبينا صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين ، ونحو ذلك من الخوارق التى يعجز الخلق عن الإتيان بمثلها . مع إمكانها فى ذاتها ، وأنها بالنسبة إلى قدرته تبارك وتعالى كسائر الممكنات خلقاً وإيجاداً، إذا أراد شيئاً منها يقول له :

(كُنْ فَيَكُونُ)

وقد جرت سنته تبارك وتعالى فى رسله : أن يخلق هذه المعجزات على أيديهم عند التحدى ، تصديقاً لهم فى دعوى الرسالة ، ولتكون حجة على المكذبين ، فإن عجزهم قاطبة عن معارضتها يوجب العلم بأنها ليست فى مقدور البشر ، وأن موجدها هو الله تبارك وتعالى . خلقها بعد التحدى ، لتكون دليلا على صدق الرسول فى دعوى الرسالة ، وحجة قائمة على الجاحدين .

قال القاضى عياض فى «الشفاء» : (إن من تأمل فى جملة كماله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم ، وجميع خصاله وشاهد حاله ، وصواب مقاله ،

وجميل أثره ، وحميد سيره ، وبراعة علمـه ، ورجاحة عقله وحلمه ، لم يمتر فى صحة نبوته وصدق دعوته ، وقـد كفى هـذا غيـر واحد فى إسلامه وتصديقه ، دون حاجة إلى معجزة وبرهان) .

قال عبد الله بن سلام: (لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جئته لأنظر إليه ، فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب).

وقال ابن رِمثة التيمى : (أتيت النبى صلى الله عليـه وسلم ومعى ابن لى فأريته ، فلما رأيته قلت : هـذا نبى الله) .

وكذلك غيرهما من أصفياء النفوس .

لَوْ لَـمْ تَكُنْ فِيهِ آياتٌ مُبَيَّنَـةٌ

لَكانَ مَنْظَـرُهُ يُـنْبِيـكَ بِالْخَبَرِ

ومع ذلك أجرى الله تبارك وتعالى على يديه صلى الله عليـه وسلم كثيراً من المعجزات الباهرة ، فكان أكثر الرسل معجزة ، وأبهرهم آيـة وأظهرهم برهانا » . إهـ . ملخصاً .

ومعجزاته صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم كثيرة ومشهورة :

(منها) ما علم قطعاً ، ونقل متواتراً ، وهو معجزة القرآن العظيم الذى تحدى صلى الله عليـه وسلم بأقصر سورة منه فرسان البلاغة ، وأئمة البيان تحدياً مستمـراً ، فألقوا باليدين عجـزاً ، ولم يستطيعوا له معارضة مع شدة جحودهم وعنادهم ، وحرصهم على تكذيبه وإبطال دعوته .

(ومنها) ما لم تبلغ آحادها مبلغ التواتر ، ولكنها فى مجموعها متواترة تواتراً معنويا ، لتفيد أيضاً العلم القطعى بوقوعها منه صلى الله عليه وسلم .

(ومنها) ما اشتهر وانتشر ، ورواه الجم الغفير ، وشاع الخبر به عند المحدثين ، ونقلته السير والأخبار ، كنبع الماء الكثيـر من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم . وتكثير الطعام القليل ببركته .

(ومنها) ما لم يشتهر ولم ينتشر ، ورواه العدد اليسير . ولكنه إذا جمع إلى مثله : اتفق على وقوعه له صلى الله عليـــه وآله وصحبه وســـلم ، فأفاد ذلك القطع بوقوعه له . إهـ بتصرف من « الشفاء وشرح المواهب ».

* * *

وإذا علمت هذا ، فهاك القول فى المعجزات التى أشار إليها الناظم بترتيبها .

معجزة سـعى الشجرة إليه (صلى الله عليه وسلم)

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال :

[كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِى سَفَرٍ ، فَأَقْبَلَ أَعْرَابِىٌّ ، فَلَمَّا دَنا مِنْهُ قالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « أَيْنَ تُرِيدُ ؟ »

قـالَ : (إِلَىٰ أَهْلِى .)

قـالَ : « هَلْ لَكَ إِلَىٰ خَيْرٍ ؟ »

قالَ : (وَما هُوَ ؟)

قالَ : « تَشْهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ . »

قالَ : (هَلْ لَكَ مِنْ شاهِدٍ عَلَىٰ ما تَقُولُ ؟) .

قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « هٰذِهِ الشَّجَرَةُ » ،

فدَعاها رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
وَهِيَ عَلَىٰ شاطِئِ الْوادِى ،
فَأَقْبَلَتْ تَخُدُّ الْأَرْضَ خَدًّا (تَشُقُّها شَقًّا)
فَقامَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ ، فاسْتَشْهَدَها ثَلاثًا ،
فَشَهِدَتْ أَنَّهُ كَما قالَ ،
ثُمَّ رَجَعَتْ إِلَىٰ مَنْبِتِها ،
وَرَجَعَ الْأَعْرَابِىُّ إِلَىٰ قَوْمِهِ ،
وَقالَ : (يا رَسُولَ اللهِ : إِنْ يَتَّبِعُونِى ، آتِكَ بِهِمْ ؛
وإِلَّا رَجَعْتُ إِلَيْكَ ، وَكُنْتُ مَعَكَ) .]

(رواه الحاكم فى المستدرك ، والدارمى ،
والبزار ، والبيهقى ، ورواه البغوى بنحوه) ؛

وعن بريدة بن الخصيب رضى الله عنه ، قال :

[سَأَلَ أَعْرَابِىٌّ النَّبِىَّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ آيَةً ،
فقالَ لَهُ : « قُلْ لِتِلْكَ الشَّجَرَةِ : رَسُولُ اللهِ يَدْعُوكِ » .
قالَ : فَمالَتِ الشَّجَرَةُ عَنْ يَمِينِها وَشِمالِها
وَبَيْنَ يَدَيْها وَخَلْفَها ، فَتَقَطَّعَتْ عُرُوقُها ،
ثُمَّ جاءَتْ تَخُدُّ الْأَرْضَ ، تَجُرُّ عُرُوقَها مُغْبَرَّةً
(مُسْرِعَةً فِى مَشْيِها)

حَتَّىٰ وَقَفَتْ بَيْنَ يَدَىْ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فَقالَتْ : « السَّلامُ عَلَيْكَ يا رَسُولَ اللهِ » ،
قالَ الْأَعْرَابِىُّ : « مُرْها فَلْتَرْجِعْ إِلَىٰ مَنْبِتِها » ، فَرَجَعتْ
فَدَلَّتْ عُرُوقَها فِى ذٰلِكَ الْمَوْضِعِ ، فَاسْتَقَرَّتْ ...]
الحديث (رواه البزار ، فى مسنده ، وأبو نعيم
فى « الحلية » ، ونقله عياض فى « الشفاء »)

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :
[جاء أَعْرَابِىٌّ (مِنْ بَنى عامِرٍ) إِلَىٰ النَّبِىِّ صَلَّىٰ اللهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقالَ : (بِمَ أَعْرِفُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ ؟)
قالَ : « إِنْ دَعَوْتُ هٰـذا الْعِذْقَ (الْعُرْجُونَ)
مِنْ هٰذِهِ النَّخْلَةِ : أَتَشْهَدُ أَنِّى رَسُولُ اللهِ ؟ »
قالَ : (نَعَمْ) ، فَجَعَلَ الْعِذْقُ يَنْزِلُ مِنَ النَّخْلَةِ ،
حَتَّى سَقَطَ إِلَىٰ النَّبِىِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
ثُمَّ قالَ :« ارْجِعْ » ، فَعادَ ، فَأَسْلَمَ الْأَعْرَابِىُّ ،
وَقالَ : (وَاللهِ لَا أُكَذِّبُكَ بِشَىْءٍ مِمَّا تَقُولُهُ
بَعْدَها أَبَـدًا ، أَشْهَدُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ .) وَآمَنَ] .
(رو ه الترمذى وصححه البخارى فى « التاريخ » ،
وأبو يعـلى ، وابن حبان ، والبيهقى) .

وعن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنه قـــال :

« سِرْنا مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (فِى غَزَاة)

حَتَّى نَزَلْنا وادِيًا أَفْيَـحَ (واسِعًا)

فذهَبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْضِى حاجَتهُ ،

فَاتَّبَعْتُهُ بِإداوَةٍ (مِطْهَرَةٍ) مِنْ ماءٍ ،

فَنَظَرَ رَسُولُ اللهِ فَلَمْ يَرَ شَيْئًا يَسْتَتِرُ بِـهِ ،

فَإذا شَجَرتانِ فِى شاطِئِ الْوادِى ، فَانْطَلَقَ

رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلَىٰ إحْداهُما ،

فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصانِها ، فَقـــالَ :

« انْقادِى عَلَىَّ بِإِذْنِ اللهِ تَعالَىٰ » ،

فَانْقادَتْ مَعَهُ كَالْبَعِيرِ الْمَخْشُوشِ

(الذى وُضِع فِى أَنْفِهِ : خشاشٌ ،

أَى عُودٌ لِينْقادَ بسُهُولَةٍ) الَّذِى يُصانِعُ قائِدَهُ ،

ثُمَّ فَعَلَ بِالْأُخْرَىٰ كَذٰلِكَ ، حَتَّى إذا كانَ

بِالْمَنْصَفِ بَيْنَهُما (بِالْمَوْضِعِ الْوَسَطِ)

قالَ : « الْتَئِما عَلَىَّ بِإِذْنِ اللهِ » . فَالْتَأَمَتـــا] .

(رواه مسلم) .

إلى غير ذلك من الأحاديث الواردة فى طاعة الأشجار وانقيادها ، وشهادتها له بالرسالة صلى الله عليه وسلم .

وقد أورد القاضى عياض فى «الشفاء» جملة منها، وقال: (فهذا ابن عمر وبريدة ، وابن عباس ، وجابـــر ، وابن مسعـــود ، ويعلى بن مرة ، وأسـامة بن زيد ، وأنس بن مالك ، وعلى بن أبى طالب ، وغيـرهم قد اتفقوا على هذه القصة نفسها أو معناها ، ورواها عنهم من التابعين أضعافهم ، فصارت فى انتشارها من القوة حيث هى) . إهـ .

ولله در الإمام البوصيرى فى قوله :

جاءتْ لِدَعْوَتِهِ الأَشْجارُ ساجِدَةً
تَمْشِى إِلَيْهِ عَلَىٰ ساقٍ بِلاَ قَدَمِ
كأَنَّما سَطَرَتْ سَطَرًا لِما كَتَبَتْ
فُرُوعُها مِنْ بَدِيعِ الخَطِّ فى اللقَمِ (١)

* * *

(١) (اللقم) بفتحتين : الطريق ، أو وسطه .

معجزة نطق الحجر له
(صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم)

عن جابر بن سمرة رضى الله عنه قال :

(قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنِّى لَأَعْرِفُ حَجَرًا بِمَكَّةَ

كانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ .

إِنِّى لَأَعْرِفُهُ الْآنَ » .

(أخرجه مسلم) :

أى : إنى لأستحضر ذلك ولا أنساه ، حتى كأنى أسمع سلامه الآن .

قيل : هو الحجر الأسود ، وقيل : هو حجر غيره بزقاق بمكة ، يعرف بزقاق الحجر ، والمشهور أنه حجر مبنى فى الجدار المقابل لدار أبى بكر المشهورة ، بسوق الليل بمكة .

وعن عليّ كرم الله وجهه ، قال :

[كُنْتُ أَمْشِى مَعَ النَّبِيِّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ ،

فَخَرَجْنا إِلَىٰ بَعْضِ نَواحِيها .

فَما اسْتَقْبَلَهُ شَجَرٌ وَلا حَجَرٌ ، إِلَّا قالَ :

« السَّلامُ عَلَيْكَ يا رَسُولَ اللهِ » .]

أى : بأن خلق الله فيه نطقاً ، وإن لم يكن معه حياة :

(رواه الترمذى ، والدارمى ، والحاكم وصححه)

وعن عائشة رضى الله عنها قالت :

[قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« لَمَّا اسْتَقْبَلَنِي جِبْرِيلُ بِالرِّسالَةِ

جَعَلْتُ لا أَمُــرُّ بِحَجَــرٍ وَلاٰ شَجَرٍ إِلَّا قالَ :

السَّلامُ عَلَيْكَ يا رَسُولَ اللهِ) .]

(رواه البزار ، وأبو نعيم)

وعن جابر بن عبد الله ، قال :

(لَمْ يَكُنِ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَــلَّمَ يَمُــرُّ

(أَيْ فى ابْتِـداءِ بَعْثَـتِـهِ)

بِحَجَرٍ وَلاٰ شَجَرٍ إِلَّا سَجَدَ لَهُ) .

(رواه البيهقى فى « الدلائل »)

أى : انخفض على هيئة السجود ، تواضعاً له وتعظيماً وتكريماً ، وظاهر أنه سمعه من غيره ممن شاهد ذلك .

ومن ذلك تأمين أسكفة الباب العليا (عتبتـه) وحوائط البيت على دعائه صلى الله عليه وسلم لعمه العباس ، وبنيـه الستة . بالستر من النار ، وقــد اشتمل عليهم بملاءته صلى الله عليه وسلم فقالت : « آمين ، آمين » .

(رواه أبو أسيد « مالك بن ربيعة » الساعدى ،
وأخرجه ابن ماجه ، والبيهقى فى « الدلائل »)

معجزة انشقاق القمر

* * *

هذه المعجزة من أمهات المعجزات ، ولم تقع لغيره صلى الله عليه وسلم من الأنبيـاء ، ولا تكاد تعـدلها آية من آياتهم ، وهى متواترة «كما ذكره الشريف الجرجانى فى شرح « المواقف » واختاره ابن السبكى فى شرح « مختصر ابن الحاجب » منصوص عليها فى القرآن ، ومروية فى الصحيحين وغيرهما من طرق شتى ، وعن جماعة من الصحابة ، منهم أنس بن مالك ، وابن مسعود ، وعلى ، وابن عباس ، وحذيفة بن اليمان وجبير بن مطعم ، وابن عمر ، وغيرهم . وإن كان منهم من لم يحضرها ورواها عن الصحابة ، ثم رواها عنهم الجم الغفير من التابعين ، وعنهم منْ بعدهم ، وأجمع أهل السنة وجمهور المفسرين على وقوعها .

وجملة ما تدل عليه الروايات الصحيحة ، أنهـا وقعت بمكة ، قبل الهجرة بنحو خمس سنين ، ليـلا والقمر بدر ، حين سـأل كفار مكة رسول الله صلى الله عليـه وسلم أن يريهم آية ، فأراهم القمر شقتين منفصلتين ، حتى رأوا جبل حراء بينهما . فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم « إِشْـهَدُوا » ثم التأم بعد ذلك .

وفى رواية عن ابن مسعود ، فقالت قريش : هذا سحر ابن أبى كبشة .

وفى رواية عن ابن عباس قال : «اجتمع المشركون على عهد رسول الله صلَى الله عَليْه وسلم ، منهم الوليـد بن المغيرة ، وأبو جهل ، والعاص بن وائل ، والعاص بن هشام ، والأسود بن عبد يغوث ، والأسود بن المطلب ، وربيعة بن الأسود ، والنضر بن الحارث ، ونظراؤهم فى التوغل فى الكفـر والعناد :

وقالوا للنبي صلى الله عليه وسلم :

« إِنْ كُنْتَ صادقًا ، فَشُقَّ لَنا الْقَمَرَ فِرْقَتَيْنِ : نِصْفًا عَلَىٰ أَبِي قُبَيْسٍ ، وَنِصْفًا عَلَىٰ قَيْنُقاعٍ (جَبَلَيْنِ قَرِيبَيْنِ بِمَكَّةَ) . »

فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم :

« إِنْ فَعَلْتُ ، تُؤْمِنُوا ؟ »

قالوا : نعم . وكانت ليلة البدر . فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه عز وجل أن يعطيه ما سألوا ، فأمسى القمر نصفين كما سألوا :

فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم : « اِشْهَدُوا »

فقالوا : سحركم ابن أبي كبشة . فسلوا السفار . فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق ، فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم . وإن لم يكونوا رأوا ما رأيتم فهو سحر . فسألوا السفار ، فقالوا : رأيناه ، فقال الكفار : هذا سحر مستمر (يريدون أنه لإحكامه سحر أعين السفار ، كما سحر أعينهم) .

وفي ذلك نزل قوله تبارك وتعالى :

*(اِقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ .

وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ .

وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ، وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ)* .

وفي قراءة :

(وَقَدِ انْشَقَّ الْقَمَرُ) .

أى : وقد وقع من آيات اقتراب الساعة أن انشق القمر وانفصل شقتين ، ولكن هؤلاء الكفار — مع مشاهدتهم هذه الآية الباهرة — أعرضوا عنها وعن التصديق بالرسالة ، وقالوا : سحر مستمر . أى : محكم قوى أو دائم مطرد ، اتباعا لأهوائهم الضالة . وإلا فإنه تبارك وتعالى الذي خلق القمر وأنزله منازل ، وسيره فيها تابعاً للشمس بحركة منتظمة دائبة متسقة ، لا يعجزه أن يشقه نصفين ، ثم يلائمه فى الدنيا ، كما سيكوره ويفنيه بقدرته فى الآخرة ، إذ كل ذلك ممكن ، وقدرة الله شاملة ، والله تبارك وتعالى فعال لما يريد :

*(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا
أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)* .

وكذلك الشأن فى جميع الخوارق والمعجزات . ولا يستبعد ذلك أو يجحده إلا من ختم الله على قلبه وسمعه ، وجعل على بصره غشاوة . فمن يهديه من بعد الله ؟!

وقد لبس على العامة بعض الملاحدة فى وقوع هذه المعجزة حيث قالوا : لو وقع هذا الانشقاق لتواتر نقله . واشترك جميع أهل الأرض فى رؤيته ، ولم يختص به أهل مكة ، ولذكره أهل الهيئة والأرصاد . فكشف خبيئتهم أئمة الإسلام ، كالإمام النووى ، والقاضى عياض . والآلوسى المفسر ، وجميع أئمة التفسير والحديث بما حاصله : أن اقتراح كفار مكة آية ، أو انشقاق القمر شقتين كان مباغتة للرسول صلى الله عليه وسلم ، بقصد التعجيز . كما هو دأبهم معه .

ولم يكن بمكة ولا بغيرها من يعلم طلبهم ذلك منه فى هذه الليلة ، وآية القمر كانت إثر اقتراحهم . وكانت ليلا والقمر بدر ، وفى زمن يسير التأم القمر بعده ، ولم تكن منه صلى الله عليه وسلم بمشهد من كثيرين

لعدم تأهبهم للأمر . ومن عادة الناس بالليل الهدوء والسكون ، وإيجاف الأبواب والنوم ، والغفلة عما يجرى فيه من الأحداث الأرضية ، فضلا عن السماوية .

وكم من أحداث تقع فى الأرض ، أو فى الجو ، أو فى السماء ، والناس عنها فى غفلة وانصراف بالنهار ، فضلا عن الليل . وبالقرب فضلا عن البعد ، ثم لايعرفون من أمرها ، إلا ما يتلقفونه من الأفواه ، ورؤية القمر فى بلد لايستلزم رؤيته فى سائر البلاد ، ضرورة اختلاف المطالع ، وقد يراه قوم ولا يراه آخرون ، لحائل من سحاب أو ارتفاع جبال ، وقد يكسف فى جهة ولا يكسف فى أخرى ، ولم تكن إذ ذاك عناية بالتأليف ولا بالرصد ، ولو وجد رصد فغفلة أهله عنه لحظة ، بل ليلة وليالى غير مستبعدة ، ولا يعقل اشتغالهم بالرصد كل لحظة ، ولا كل ليلة ، فالحق والصدق ما قاله رب العالمين ، فى كتابه الكريم :

(وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ قِيلًا) ؟

والقرآن متواتر مقطوع به ، فلا مرية — عند المؤمنين — فى وقوع هذه المعجزة الباهرة له صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

* * *

وقول الناظم : « بِإِشارَتِهِ » :

أى بإشارته صلى الله عليه وسلم إلى القمر : أن ينشق بأمره تبارك وتعالى ، أو منشقا ، حين قال للقوم : « اِشْهَدُوا » ، أى: اشهدوا هذه الآية وعاينوها بأبصاركم ، لتعلموا أنها حجة وبرهان وتصديق للرسالة . والله تبارك وتعالى أعلم .

* * *

معجـزة الاسـراء والمعراج

ثم قال الناظم :

جِبْـــرِيـــلُ أَتَــىٰ لَـيْـــلَ الْإِسْـــرا
وَالـــرَّبُّ دَعـــا هُ لِحَضْـــرَتِـــهِ

صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم :

مشيراً بالشطر الأول إلى الإسراء ، وبالشطر الثانى إلى المعراج .

وهذه المعجزة من أشهر المعجزات ، وأعظم الآيات ، التى خص الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم ، فأسرى به ليلا على البراق ، من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، وعرج به على المعراج وهو السلم — فى هذه الليلة عينها إلى السماء بجسده وروحه ، يقظة لا مناما ، على ما سيأتى بيانه .

وقد جاء القرآن بنبإ هذه المعجزة فى سورة الإسراء وسورة النجم فى قوله تبارك وتعالى :

(لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّـهِ الْكُبْـرَىٰ) .

ورواها خمسة وأربعون من الصحابة ، منهم : أنس بن مالك ، وجابر بن عبد الله ، وأبى بن كعب ، وبريدة بن الخصيب ، وسمرة ابن جندب ، وابن عباس ، وابن عمر ، وعمر بن الخطاب ، وابن عمرو ابن العاص ، وابن مسعود ، وحذيفة بن اليمان ، وشداد بن أوس ، وصهيب بن سنان ، وعلى ، ومالك بن صعصعة ، وأبو أمامة ، وأبو هريرة ، وأبو سعيد الخدرى ، وأبو أيوب الأنصارى ، وأبو حبة البدرى ، وأبو ذر ، وعائشة ، وأسماء بنت أبى بكر ، وأم هانئ ، وأم سلمة وغيرهم .

وهـؤلاء منهم من سمعها من النبى صلى الله عليه وسلم مباشرة . ومنهم من رواها عنه بالواسطة . ومنهم من أجمل ، ومنهم من فصل .

قال ابن هشام فى سيرته : (كان فى مسراه صلى الله عليه وسلم وما ذكر عنه بلاء وتمحيص ، وأمرٌ من أمر الله عز وجل فى قدرته ، وسلطانه ، فيه عبرة لأولى الألباب ، وهدى ورحمة ، وثبات لمن آمن بـه وصدق .. وكان من أمر الله سبحانه وتعالى على يقين ، فأسرى بـه سبحانه كيف شاء ، ليريه من آياتـه ما أراد ، حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم ، وقدرته التى يصنع بها ما يريد) . إ هـ .

وقال القاضى عياض فى « الشفاء » : (لا خلاف بين المسلمين فى صحة الإسراء به صلى الله عليه وسلم ، إذ هو نص القرآن ، وجاءت بتفاصيله وشرح عجائبه وخواص نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فيـه أحاديث كثيرة منتشرة . رأينا أن نقدم أكملها ، ونشير إلى زيادة من غيره يجب ذكرها ، ثم روى بسنده حديث (ثابت بن أسلم البنانى عن أنس بن مالك) . وقال : جوّد ثابت هذا الحديث عن أنس ما شاء ، ولم يأت أحد عنه بأصوب من هـذا ، فقال أنس : [قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ ، وَهُوَ دابَّةٌ أَبْيَضُ ،
طَوِيلٌ ، فَوْقَ الْحِمارِ ، وَدُونَ الْبَغْلِ ،
يَضَعُ حافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَىٰ طَرْفِهِ (١) :
قالَ : فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ ،
فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتى تَرْبِط بِها الْأَنْبِياءُ ،

(١) يشير إلى منتهى بصره .

ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ ، فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ،
ثُمَّ خَرَجْتُ ، فَجاءَنِى جِبْرِيلُ بِإِناءٍ مِنَ خَمْرٍ ،
وإِناءٍ مِنْ لَبَنٍ ، فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ ،
فَقالَ جِبْرِيلُ : اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ ،
ثُمَّ عُرِجَ بِنا إِلَىٰ السَّماءِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ ،
فَقِيلَ : مَنْ أَنْتَ ؟ قالَ : جِبْرِيلُ .
قِيلَ : وَمَنْ مَعَكَ ؟ قالَ : مُحَمَّدٌ .
قِيلَ : أَوَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟
قالَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ .
فَفُتِحَ لَنا . فَإِذا أَنا بِآدَمَ صَلَّىٰ اللهُ عليْهِ وَسَلَّمَ :
فَرَحَّبَ بِى ، وَدَعا لِى بِخَيْرٍ .
ثُمَّ عُرِجَ بِنا إِلَىٰ السَّماءِ الثَّانِيَةِ ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ .
فَقِيلَ : منْ أَنْتَ ؟ قالَ : جِبْرِيلُ .
قِيلَ : وَمَنْ مَعكَ ؟ قالَ : مُحَمَّدٌ .
قِيل : أَوَ قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ ؟ الَ : قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ .
فَفُتِحَ لَنا . فَإِذا أَنا بِابْنَى الْخالَةِ :
عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ ، وَيَحْيَىٰ بْنِ زَكَرِيَّا ،

صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِما وَسَلَّمَ . فَرَحَّبا بِى ، وَدَعَوَا لِى بِخَيْـرٍ .
ثُمَّ عُـرِجَ بِنا إِلَىٰ السَّماءِ الثَّالِثَةِ ، فَذَكَرَ مِثْلَ الْأَوَّلِ ،
فَـفُتِـحَ لَنا ، فَإِذا أَنا بِيُوسُفَ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ .
وَإِذا هُوَ قَدْ أُعْطِىَ شَطْرَ الْحُسْنِ . فَرَحَّبَ بِى وَدَعا لِى بِخَيْرٍ
ثُمَّ عُرِج بِنا إِلَىٰ السَّماءِ الرابِعَةِ ، وَذَكَرَ مِثْلَهُ ،
فَإِذا أَنا بِإِدْرِيسَ عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ ،
فَرَحَّبَ بِى وَدَعا لِى بِخَيْـرٍ .

قال الله تبارك وتعالى :

(وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَـلِـيًّـا) .

ثُمَّ عُرِجَ بِنا إِلَىٰ السَّماءِ الْخامِسَةِ ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ ،
فَإِذا أَنا بِهارُونَ ، فَرَحَّبَ بِى وَدَعا لِى بِخَيْـرٍ .
ثُمَّ عُـرِجَ بِنا إِلَىٰ السَّماءِ السَّادِسَةِ ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ ،
فَإِذا أَنا بِمُوسَىٰ ، فَرَحَّبَ بِى وَدَعا لِى بِخَيْرٍ .
ثُمَّ عُـرِجَ بِنا إِلَىٰ السَّماءِ السَّابِعَةِ ، فَذَكَرَ مِثْلَهُ ،
فَإِذا أَنا بِإِبْراهِيمَ مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَىٰ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ،
وَإِذا هُوَ يَدْخُـلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ :
لا يَعُودُونَ إِلَيْـهِ .

ثُمَّ ذُهِب بِى إِلَىٰ سِدْرَةِ الْمُنْتهىٰ ،

وَإِذا وَرَقُها كَآذانِ الْفِيَلَةِ ، وَإِذا ثَمَرُها كَالْقِلالِ .

قالَ : فَلَمَّا غَشِيَها مِنْ أَمْرِ اللهِ تبارَكَ وتَعالَىٰ

ما غَشِىَ : تَغَيَّرَتْ ،

فَما أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللهِ تَعالَىٰ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَها

مِنْ حُسْنِها !.. فَأَوْحَىٰ اللهُ إِلَىَّ ما أَوحَىٰ ،

فَفَرَضَ عَلَىَّ (أَىْ : وَعَلَىٰ أُمَّتِى)

خَمسِينَ صَلاةً فِى كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ،

فَنَزَلْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ ، فَقالَ : ما فَرَضَ رَبُّكَ عَلَىٰ أُمَّتِكَ ؟

فَقُلْتُ : خَمْسِينَ صَلاةٍ ،

قالَ : ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ ،

فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاٰ يُطِيقُونَ ذٰلِكَ ،

فَإِنِّى قَدْ بَلَوْتُ بَنِى إِسْرائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ ،

قالَ : فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّى فَقُلْتُ :

يا رَبِّ : خَفِّفْ عَنْ أُمَّتِى ، فَحَطَّ عَنِّى خَمْسًا .

فَرَجَعْتُ إِلَىٰ مُوسَىٰ فَقُلْتُ : حَطَّ عَنِّى خَمْسًا ،

قالَ : إِنَّ أُمَّتَكَ لاٰ يُطِيقُونَ ذٰلِكَ ،

فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ ،

قالَ : فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّى تعالَىٰ وَبَيْنَ مُوسَىٰ ،

حتَّى قالَ اللهُ : [يا مُحَمَّدُ :

إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَواتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ ،

لِكُلِّ صَلاةٍ عَشْرٌ . فَتِلْكَ خَمْسُونَ صَلاةً ..

وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها : كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَة ..

فَإِنْ عَمِلَها : كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا ..

وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْها : لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا ..

فَإِنْ عَمِلَها : كُتِبَتْ لَهُ سَيِّئَةً واحِدَةً].

قالَ : فَنَزَلْت حَتى انْتَهَيْت إِلَىٰ مُوسَىٰ فَأَخْبَرْتُهُ .

فَقالَ : ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ ، فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ ..

فَقالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَقُلْتُ :

« قَدْ رَجَعْتُ إِلَىٰ رَبِّى حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ » .

(رواه مسلم فى صحيحه)

* * *

شرح بعض ما فى الحديث وما يتعلق به :

(ثابت البنانى) رأس العلماء العابدين فى عصره ، ثقة ثابت كاسمه ، أخرج له أصحاب الكتب الستة ، وتوفى سنة ١٢٧ هـ عن ست وثمانين سنة .

(قوله : فركبته) استظهر بعضهم اختصاصه صلى الله عليه وسلم بركوبه . فلم يركب جبريل معه ، بل أخذ بركابه ، وأخذ ميكائيل بزمامه ، وقيل ركبه معه جبريل ، خلفه أو قدامه .

(قوله : فصليت فيه ركعتين) أى: تحية المسجد ، وقرأ فى الأولى : (قل يأيها الكافرون) وفى الثانية (الإخلاص) ، وقد كان مفروضاً عليه صلى الله عليه وسلم صلاة قبل فرض الصلوات الخمس فى هذه الليلة .

وهاتان الركعتان فى المسجد ، غير صلاته صلى الله عليه وسلم إماماً بالأنبياء والملائكة فيه فى هذه الليلة ، وقد اجتمعوا فيه بأرواحهم ممثلة فى صور أجسادهم ، وقيل بأجسادهم مع أرواحهم ، لأنهم أحياء فى قبورهم ، حياة برزخية خاصة ، والله تبارك وتعالى ينقلهم حيث يشاء وهو على كل شئ قدير ، وللأنبياء خصائص فوق خصائص الشهداء ، وقد نقلهم فى هذه الليلة إلى بيت المقدس تشريفاً لنبينا صلى الله عليه وسلم ، واحتفاء به وتكريما .

قوله (اخترت الفطرة) الفطرة تطلق على الجبلة والطبيعة التى طبع الله الناس عليها ، وهى هنا كما قال النووى : الإسلام والاستقامة ، أى اخترت علامتهما ، وجعل اللبن علامة لهما ، لكونه سهلا طيباً طاهراً سائغاً للشاربين ، سليم العاقبة ، بخلاف الخمر ، فإنها أم الخبائث ، وجالبة لأنواع الشرور ، وقد وافق الرسول صلى الله عليه وسلم الصواب فى علم الله ، فقال له جبريل : « أَصَبْتَ الْفِطْرَةَ »

والخمر لم تكن حرمت إذ ذاك ، وإنما حرمت بعد فى المدينة كما فى آية المائدة .

وفى رواية لعبد الله بن مسعود ، فقال له جبريل :

« هُدِيتَ ، وَهُدِيَتْ أُمَّتُكَ ، يا مُحَمَّدُ » .

قـــوله : (فـــإذا أنا بآدم) وكذا لقاء آدم والأنبياء المذكورين هنا فى السماء ، هـو لقاء أرواحهم ممثلة بصور أجسادهم . ما عدا عيسى عليه السلام ، فـإنه رفع بجسده حيا ــ عند الجمهور ــ ونقـل ذلك فى إدريس أيضا ، وقيل لقاء ذواتهم جسدا وروحا على ما بينا .

قوله (البيت المعمور) هو بيت فى السماء ، تطوف به الملائكة ، وتحج إليه للعبادة ، محاذ للكعبـة ، ويسمى « الضراح » ــ بضم الضاد المعجمة وبراء وحاء بينهما ألف ــ ووصفه بالمعمور لعمارته بكثرة من يغشاه من الملائكة .

قوله (سدرة المنتهى) : هى شجرة أخبر الله أنه خلقها فى السماء ، ولها فى خلقها وطبيعتهـا ومكانها وحياتها وبقائهـا وصفاتها : شأن غير شأن أشجار الأرض ، *(وَلِلَّهِ ما فِى السَّمٰوات وَمَا فِى الْأَرْضِ)*،

(يَخْلُقُ ما يَشَاءُ وَيَخْتَارُ)

وسميت سدرة المنتهى لأنه ينتهى إليها علم كل نبى مرسـل ، وكل ملك مقـرب ، ولا يعلم ما خلفها إلا الله ، أو من أعلمه ، ولم يجاوزها أحد إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والقلال : الجرار الكبيرة ، التى تسع قربتين أو أكثر .

وفى رواية «كقلال هجر» بفتحتين ، وهى بـلدة قرب المدينة ، معروفة بصنع الجرار الكبيرة ، غير هجر التابعة للبحرين .

قوله (بلوتهم) أى : اختبرتهم ، وعلمت فيهم الشدة وعدم الوفاء والصبر على صلاتين فى اليوم والليلة ، فكيف حال أمتك ؟ .

تاريخ وقوع الاسراء

ثم إن معجزة الإسراء ، كانت بمكة إجماعا ، وكانت بعد البعثة ، قال الزهرى : كانت بعدها بخمس سنين ، وقيل : قبل الهجرة بسنة وشهرين ، وقيل : قبلها بخمس سنين ، ورجحه فى « الشفاء » ، واختلف فى شهرها وليلتها ، فقيل : فى ربيع الأول ، أو ربيع الآخر ، أو رجب ، أو رمضان ، أو شوال ، ورجح بعض العلماء : أنها فى رجب ، ليلة السابع والعشرين منه . وعليه جرت البلاد المصرية والحجازية قديما .

الاسراء بالجسد والروح يقظة

وكان الإسراء — كما قدمنا — بالجسد والروح ، يقظة لا مناما ، وهو قول : ابن عباس ، وجابر ، وأنس ، وحذيفة ، وعمر ، وأبى هريرة ومالك بن صعصعة ، وأبى حبة البدرى ، وابن مسعود ، والضحاك ، وسعيد بن جبير ، وسعيد بن المسيب ، وابن شهاب الزهرى ، وعبد الرحمن ابن زيد ، والحسن البصرى ، وإبراهيم النخعى ، ومسروق ، ومجاهد ، وعكرمة ، وابن جريج ، وابن جرير الطبرى ، وأحمد بن حنبل ، ومعظم السلف ، وجماعة عظيمة من المتقدمين والمتأخرين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين ، وهو الحق الذى تدل عليه الآية والأحاديث ، فإن الإسراء هو السير ليلا ، وهو لا يكون حقيقة إلا باليقظة ، واعتبار الحقيقة أولى من المجاز ، ما لم يصرف عنها صارف ، ولا صارف هنا عنها ، وكذلك كان العروج به إلى السماء فى هذه الليلة على الراجح .

وقد عاد صلى الله عليه وسلم فيها ، وأصبح يحدث قومه بما وقع له من هذه المعجزة الباهرة ، فعجبوا وبقوا ما بين مصفق ، وبين واضع يده على رأسه متعجباً ، وارتد أناس من ضعفاء الإيمان ممن كانوا أسلموا .

وسعوا إلى أبى بكر فأخبروه بما يقوله صاحبه ، فبادر إلى تصديقه ، فلذلك سمى (الصديق) ، فاستوصفوه صلى الله عليه وسلم المسجد الأقصى ، وكان فيهم من يعرفه ، فوصفه لهم بما يعرفونه ، فقالوا : « أما البيت فوالله لقد أصاب فيه » .

ثم سألوه عن عيرهم ، هل لقى منها شيئاً ؟

فقال: « نَعَمْ ، مَرَرْتُ بِعِيرِ بَنِى فُلانٍ وَهِىَ بِالرَّوْحاءِ ،
وَقَدْ أَضَلُّوا عِيرًا ، وَهُمْ فِى طَلَبِها ،
وَفِى رِحَالِهِمْ قَدَحٌ مِنْ ماءٍ ،
فَعَطِشْتُ فَأَخَذْتُهُ فَشَرِبْتُهُ ، ثُمَّ وَضَعْتُهُ كَما كانَ ،
فَسَلُوا : هَلْ وَجَدُوا الْماءَ فِى الْقَدَحِ حِينَ رجَعُوا ؟

فقالوا : هذه آية .

الَ : « ومَرَرْتُ بِعِيرِ بَنِى فُلانٍ ،
وَفُلانٌ وَفُلانٌ راكِبانِ قَعُودًا لَهُما بِذِى إِمَّرَ ،
فَنَفَرَ بَعِيرُهُما مِنِّى ، فَانْكَسَرَتْ يَدُهُ ،
فَسَلُوهُما عَنْ ذٰلِكَ » .

فقالوا : وهذه آية أخرى !

قالوا: فَأَخْبِرْنا عَنْ عِيرِنا ؟ ، قالَ : « مَرَرْتُ بِها بِالتَّنْعِيمِ . »

قالُوا : فَما عِدَّتُها ، وَأَحْمالُها ، وَهَيْئَتُها ؟

فَأَخْبَرَهُمْ عَنْ ذٰلِكَ كُلِّهِ ، وَقالَ : « وَفِيها فُلانٌ وَفلانٌ ،

يَقْدُمُها جَمَلٌ أَوْرَقُ ، عَلَيْهِ غِرارَتانِ مَخِيطَتانِ ،
تَطْلعُ عَلَيْكُمْ عِنْـدَ طُلُوعِ الشَّمْسِ » .

فقالوا : وهذه آية أخرى !

ثم خرجوا يشتدون نحو الثنية ، وهم يقولون : لقد قص محمد شيئاً وبينه ، حتى أتوا كداء (١) فجعلوا ينتظرون متى تطلـع الشمس فيكذبونه إذ قال قائل منهم : هذه الشمس قد طلعت ، وقال آخر : وهذه العير قد طلعت ، يقدمها بعير أورق ، فيها فلان وفلان ، كما قال :

(وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ)

قال عياض في « الشفـاء » : والصحيح أنه إسراء بالجسـد والروح ، في القصة كلهـا (في الإسراء والمعراج) وعليـه تدل الآية وصحيح الأخبار ، والاعتبار ، ودقيق الفكر ، والتأمل في الأحاديث ، ولا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل : إلا عند الاستحالة ، وليس في الإسراء بجسده وحال يقظته استحالة تؤذن بتأويل . إذ لو كان مناما لقال بروح عبده ، ولم يقل بعبده ، وكذلك يدل عليه قوله تبارك وتعالى :

(مَا زَاغَ الْبَصَـرُ وَمَا طَغَىٰ) .

أي: ما عدل صلى الله عليه وسلم عن رؤية ما أمر به من عجائب الكون، وما جاوزها ، وذلك لصراحة ظاهره في أنه بجسده يقظة . لأنه أضاف الأمر إلى البصر ، وهو لا يكون إلا يقظة بجسده ، بشهادة :

(لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّـهِ الْكُبْرَىٰ) .

ولو كان مناماً لما كانت فيه آية ولا معجزة ، ولما استبعده الأغبياء

(١) كداء — بفتح الكاف والدال — ثنية من ثنايا مكة ؛ وهي بخلاف كُدًى بضم الكاف ، وهي ثنية أخرى في مكة أيضاً .

الذين كذبوه فيه . ولما ارتد به الضعفاء الذين أسلموا وافتتنوا به ، لأن مثل ذلك من المنامات : لا ينكر ، بل لم يكن ذلك منهم إلا وقد علموا أن خبره إنما كان عن إسراء بجسمه وحال يقظته — إلى ما ذكر فى الحديث من مجيء جبريل له بالبراق ، والدواب لاتحمل الأرواح ، وإنما تحمل الأجسام ، ومن خبر المعراج ؛ واستفتاح السماء ، فيقال : ومن معك فيقول محمد ؛ وفى بعض الأخبار :

« فَأَخَذَ — أَىْ جِبْرِيلُ — بِيَدِى ، فَعُرِجَ بِى إِلَىٰ السَّماءِ ،

ثُمَّ عُرِجَ بِى حَتَّىٰ ظَهَرْتُ بِمُسْتَوًى

أَسْمَعُ فِيهِ صَرِيفَ الْأَقْلامِ » ،

وذلك كله إنما يكون إذا كان الإسراء بالجسد يقظة .

رد القول بأن الاسراء بالروح :

وأما ما روى عن عائشة رضى الله عنها من قولها :

« ما فَقَدْتُ جَسَدَهُ ، وَلٰكِنْ أُسْرِىَ بِرُوحِهِ »

فقال ابن دحية فى « التنوير » : إنه حديث موضوع ، وقال أبو العباس ابن سريج « إمام الشافعية » : إنه حديث غير صحيح ، وإنما وضع رداً للحديث الصحيح ، ونقل الزرقانى فى « شرح المواهب » : إنه ليس بثابت عنها ، لما فى متنه من العلة القادحة ، إذ لم يدخل النبى صلى الله عليه وسلم بعائشة إلا بالمدينة ، ولم تكن ببيته فى مكة ، ولما فى سنده من انقطاع ، وراو مجهول .

وعلى تقدير صحته ، فعائشة لم تحدث به عن مشاهدة قطعاً ، بل حدثت به عن غيرها . فيرجح خبر غيرها على هذا الخبر : لعدم ثبوته عنها .

معظم شرف الرسول
(صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم)

ثم قال الناظم :

نَالَ الشَّرَفَا وَاللهُ عَفَا
عَمَّا سَلَفَا مِنْ أُمَّتِهِ

صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم

وبعد أن علمت ما قدمناه – وهو قطرة من بحر معجزاته
وخصائصه وفضائله ومحاسنه صلى الله عليه وسلم –
تعلم أنه صلى الله عليه وسلم قد نال من الشرف أعظمه ،
ومن التعظيم أكمله ، ومن الدرجات العلية أرفعها ،
ومن المراتب الرفيعة أعلاها عند الله تبارك وتعالى ،
بما خصه به من الشمايل والكمالات ،
والخصائص والكرامات ، والآيات والمعجزات ،
فكان أفضل خلق الله ، وأعظم رسل الله ،
وكانت أمته خير الأمم وأعدلها بما خصها الله به :
كرامة لحبيبه ، من الخصائص والفضائل التى أسلفنا بيان طرف منها ،
وإنها لعظيمة جليلة ، وأى شرف وفضل أعظم من هذا ؟ !.

الإسلام يجب ما قبله

وقول الناظم « والله عفا ، عما سلف ، من أمته » إشارة إلى منة أخرى من منن الله على عباده المؤمنين — وما أكثرها وما أعظمها — وخاصة على هذه الأمة المحمدية المكرمة بكرامة رسولها صلى الله عليه وسلم وهي الغفران لما سبق من الكفر والآثام بمجرد الإيمان والإسلام .

قال تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ ﴾

فالكافر إذا كف عن الكفر ، وأسلم لله تبارك وتعالى : لا يؤاخذ بشيء مما اقترفه في كفره . بل « الإسلام يجبّ ما قبله » ويهدمه .

وأخرج مسلم عن عمرو بن العاص رضى الله عنه ؛ قال :

(أَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقُلْتُ :

ٱبْسُطْ يمينَكَ لِأُبايِعَكَ ، فَبَسَطَ يَمِينَهُ الشَّرِيفَةَ ،

قَالَ : فَقَبَضْتُ يَدِي ،

فَقالَ عَلَيْهِ الصلاةُ وَالسَّلامُ : « مالَكَ يا عَمْرُو ؟ »

قُلْتُ : أَرَدْتُ أَنْ أَشْتَرِطَ ، قالَ : « تَشْتَرِطُ ماذا ؟ »

قُلْتُ : أَشْتَرِطُ أَنْ يُغْفَرَ لِي :

قالَ : « أَما عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلامَ يَهْدِمُ ما كانَ قَبْلَهُ » .)

الحديث .

والأحاديث والآثار في هذا الباب مستفيضة ، وحسبنا ما ذكرنا .

والله رءوف بعباده ، غفور رحيم ،
يقبل التوبة عن عباده ، ويعفو عن السيئات ،
ويسبغ رحمته على عباده المؤمنين والمؤمنات .

* * *

ثم ختم الناظم منظومته بقوله :

فَوَسِيلَتُنَا هُوَ سَيِّدُنَا
وَالْعِزُّ لَنَا بِإِجَابَتِهِ

صلى الله تبارك وتعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم

أى : فوسيلتنا إلى رضا الله تبارك وتعالى وإنعامه ، وإحسانه وإكرامه ، وذريعتنا إلى العلم بالله ، وما شرعه لنا من الدين وارتضاه ، وجعله مناط السعادة والكرامة ، فى الدنيا ويوم القيامة ، هو سيدنا (محمد رسول الله) خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم ، المبعوث رحمة للعالمين ، الداعى إلى الهدى والحق المبين ، المؤيد بالمعجزات الباهرة ، والمخصوص باللطائف السنية والهبات الوافرة ، إمام الأنبياء ومقدمهم فى الدنيا والآخرة والشرف العظيم والجاه ، والسعادة السرمدية والنجاة ، لنا نحن أتباعه المسلمين بالإيمان به ، والتصديق برسالته ، وإجابة دعوته ، واتباع شريعته ، وانتهاج طريقته ، والدعوة لإحياء سنته .

قال تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ ،

وقال تبارك وتعالى :

*(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ
أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ
وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا *
ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عَلِيمًا)*

وقال تبارك وتعالى : *(وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا)* .

وقال تبارك وتعالى : *(وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ)*

* * *

(اَللَّهُمَ) وَفِّقْنا لطاعَتِكَ وَتَقْواكَ ، وامْنَحْنا هُداكَ وَرِضاكَ
وَامْلَأْ قُلُوبَنا بِحُبِّكَ وَحُبِّ مُجْتَباكَ ،
وَثَبِّتْنا عَلَى الإِيمانِ حَتَّى نَلْقاكَ .

(اَللَّهُمَ) وَاكْفِنا بِكِفايَتِكَ ، وأَغْنِنا عَمَّنْ سِواكَ ،
وَاحْفَظْنا مِمَّنْ لا يَخافُكَ وَلا يَخْشاكَ . يا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ

(اللَّهُمَ) : لَكَ الْحَمْدُ عَلَى ما أَسْبَغْتَ مِنْ نِعَمٍ ،
وَلَكَ الشُّكْرُ عَلَى ما أَسْدَيْتَ مِنْ مِنَنٍ ،
وَصَلِّ ـ اللَّهُمَّ ـ فِي الْبَدْءِ والْخِتامِ ، عَلَى سَيِّدِ الْأَنامِ ،
الشَّفِيعِ الْمُشَفَّعِ يَوْمَ الْهَوْلِ وَالزِّحامِ ،
وَعَلَى آلِهِ وَأَصْحابِهِ وَأَتْباعِهِ مَصابِيحِ الظَّلامِ .

تم هذا الشرح بالقاهرة في يوم الجمعة سادس ذى الحجة سنه ١٣٨٦
(ست وثمانين وثلاثمائة وألف) هجرية « ١٧ مارس سنة ١٩٦٧ م
بيد كاتبه الفقيــر إلى عفو مولاه الرءوف
(حسنين محمد مخلوف) .
وتم تحريره وتبييضه بنجع حمادى
فى يوم الأربعاء التاسع من شهر المحرم ، سنة ١٣٨٧
(ســبع وثمانين وثلاثمائة وألف) هجــرية
« ١٩ أبريل سنة ١٩٦٧ م »
بدار مولانا الأستاذ العارف بالله العالم العامل القدوة التقى
(الشيخ : أحمد أبى الوفاء الشرقاوى)
طيب الله ثراه ـ وجعل الفردوس مثواه ،
آمين ، بجاه سيد المرسلين .

﴿ مِـدْحَـةٌ نَبَـوِيَّـةٌ (١) ﴾

ولمولانا الأستاذ رضى الله عنه هـذه المدحة
التى أنشأها بالمدينة المنورة ، منذ أكثر من ثلثى قرن ــ قال :

يُمْنـاكَ تَهْمى بِالْعَطَىٰ وَتَجُـودُ
وَسَما بِنِسْبَتِهِ إِلَيْكَ الْجُودُ

يا مَنْ إذا أَوْفىٰ بِبـابكَ طامِـعٌ
حِيزَتْ لَهُ الْآمالُ ، وَهْىَ شَرُودُ

يا نُورَ عيْنِ الْكَوْنِ سِرُّكَ فِى الْوَرَىٰ
سَـارٍ ، وَنورُكَ ساطِـعٌ مَشْـهُـودُ

هَبَطَتْ لِساحَتِكَ الْمَلائِكُ خُشَّعًا
وَأَتَوْا حِماكَ ، وَظِلُّكَ الْمَمْدُودُ (٢)

وَسَعَىٰ إِلَيْـكَ الْأَنْبِيـاءُ بِجَمْعِهِمْ
وَالرُّسْـلُ حَوْلَكَ جُثَّمٌ وَقُعُـودُ

يَكِفُ (٣) النَّدَىٰ مِنْ راحَتَيْكَ عَلَيْهِمُ
وَنَداكَ فِيهِـمْ : غـامِـرٌ وَمَـزِيدُ

---

(١) شرحنا هذه المدحة شرحاً وافياً، وطبع مستقلا، فارجع إليه إن شئت .

(٢) خبر مقدم لمبتدإ مؤخر ، والتقدير : وظلك هو الممدود .

(٣) من وكف المطر : إذا نزل بشدة .

والكَوْنُ دُونهُمُ يمُـدُّ لَـكُمْ يَدًا

سَعِدَتْ يَداهُ ، فَإنَّهُ مَرْفُودُ [1]

وَلَقَدْ مَدَدْتُ يَدِى لِبابِ عَطائِكُمْ

أَفَدُونَ بابِكمُ يُـرَىٰ مَرْدُودُ [2] ؟

لا وَالَّذِى رَفَـعَ السَّماءَ وَشادَها

وَحَباكَ كُلَّ الْفَضْل ، وَهْوَ شَهِيدُ

أَصْبَحْتُ أَرْتَـعُ فِى جِوارِكَ آمِنًا

أَيْدِيـكَ تُمْطِـرُنِى ، وَأَنْتَ وَدُودُ

وَوَقَـفْتُ أَطْماعِى عَلىٰ أَعْتابِكُم

وَلَنِعْمَ هٰذا الْمَوْقِفُ الْمَحْمُـودُ

وَصَفَتْ أُمَيْقَـاتِى بِطَيْبَةَ وَهْىَ لِى

أَمْنٌ وَعَيْــشٌ مُخْصِبٌ وَرَغِيـدُ

وَاخْضَــرَّ عُودِى فِى حِماكَ وَإِنَّهُ

قَمِنٌ [3] بِأَنْ يَخْضَرَّ فِيـهِ الْعُودُ

---

(1) من الرفد ، وهو العطاء .

(2) كلا وحاشا

(3) قمنٌ به : جديرٌ به

أَيُراعُ [1] لِي مِنْ بَعْــدِ ذٰلِكَ خاطِرٌ
وَأُذادُ عَـنْـكَ وَحَـوْضُكَ الْمَـوْرُود

حاشا وَلٰـكِنْ بَعْضُ أَمْرِيَ رابَنِي
فَطَـفِـقْـتُ أَبْـدَأُ حـائِـرًا وَأَعــودُ

هٰذا الرَّحِيلُ بَدا ، وَ «طِيبَـةُ» لِي هَوًى
وَغَــدًا لِـنـاعِـقٍ بَيْنِـنـا تَرْدِيــدُ

فَارْتَعْتُ لَوْلا وُسْعُ فَضْلِكَ مُخْبِرِي
أَنَّ الْجِـوارَ وَإِنْ نَـأَيْتُ يَـعُــودُ

مَعْ أَنَّنِي فِي الذّاتِ حُبِّـكَ راحِـلٌ
وَلِـوَصْــلِ ما بِيَدِيكُمُ مَـعْـقُــود

أَرْجُــو بِـهِ قُـرْبِي لَدَيْكَ وَإِنَّنِي
أَبْغِي رِضــاكَ بِـرِحْـلَتِي وَأُرِيــدُ

وَذَكَتْ لِـبُعْدِيَ عَنْ مَعاهِدِ «طِيبَـةٍ»
نـارٌ لَهــا بيْنَ الضُّــلُوعِ وَقُـودُ

---

(١) يقال : راعه الشيء أفزعه

قَدْ كُنْتُ أَحْذَرُهُ ، وَكَيْفَ يُطِيقُهُ

قَلْبٌ يُمَزِّقُهُ الْهَوَىٰ وَيُعِيد

وَحُشاشَةٌ[1] بِثَرَىٰ الْمَدِينَةِ وَجْدُها

وَحَشًى[2] بِـ «طِيبَةَ» هائِمٌ مَفْئُودُ[3]

أَهْوَىٰ مَعاهِدَها ، وَلِى كَلَفٌ بِها

وَهْىَ الْمُنَىٰ لا عالِجٌ وَزَرُودُ[4]

تَبْيَضُّ لِى فِيها وُجُوهُ دَياجِرِى[5]

وَوُجُوهُ أَيَّامِ [ا]بْتِعادِىَ سُودُ

فَلَئِنْ أُعِيدَتْ لِى أُوَيْقاتى بِها

فَجَمِيعُ أَيَّامِى بِقُرْبِكَ عِيدُ

وَرَجاىَ فِى الْبارِى وَأَنْتَ مُشَفَّعٌ

عَوْدٌ بِأَهْلِى : عاجِلٌ وَحَمِيدُ

وَجِوارُنا دَوْمًا بِحُسْنِ تَأَدُّبٍ

وَلِنُورِ ذاتِكَ فِى الْقُلُوبِ شُهُودُ

---

(١) الحشاشة : بقية الحياة

(٢) الحشا : ما انضمت عليه الضلوع :

(٣) من (فأدهُ) إذا أصاب فؤاده :

(٤) لاعالج وزرود : يريد أنه لا يود مفارقتها ؛

(٥) الدياجر : جمع دَيجور ، وهى الظلمة ؛

وَصَلاحُ أَمْرِ الدِّينِ وَالدُّنْيـا لنا

وَلِأَهْـلِ وُدِّىَ أَرْتَجِى وَأُرِيـدُ

وَسَلامَةٌ مِنْ شَرِّ وَقْتٍ قَدْ نَمـا

وَفَـكاكُ رُوحٍ أَوْثَقَتْـهُ قُيُـودُ

وَالْخَتْـمُ بِالْحُسنَىٰ ، وَذاكَ مُؤَمَّلِى

وَبِهِ الْفَتَىٰ يَوْمَ الْقِيامِ يَسُـودُ

فَإِذا ظَفِـرْت - وَإِنَّنِى عَبْدٌ - بِها

فَهْـوَ الرَّجاءُ ، وَإِنَّنِى لَسَعِيـدُ

وَوَسِيلَتِى لَكَ صاحِباكَ فَقَدْ نَبَتْ

بِى عَنْكَ أَعْمالٌ بِهِنَّ حُيُـودُ(١)

رِضْوان رَبِّىَ عَنْهُـما وَالْآلِ والْ

أَصْحابِ مَنْ هُمْ فِى الْخُطُوبِ أُسُودُ

وَعَلَيْكَ صَلَّىٰ ثُمَّ سَلَّـمَ دائِمًا

أَبَـدًا وَبارَكَ رَبُّنـا الْمَعْبُودُ

(تم الكتاب بتوفيق من الله تبارك وتعالى)

---

(١) من قولهم : حاد عن الشيء : مال عنه .

بسم الله الرحمن الرحيم

طبع على نفقة الجليل تبارك وتعالىٰ

هدية لحضرة النبي المصطفىٰ :

سيدنا : محمد

عليه وآله وصحبه أفضل الصلاة وأتم التسليم ،

داعين المولىٰ عزت وجلت قدرته :

أن توفى سيدنا : محمدا

الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة ،

وأن تبعثه - اللهم - المقام المحمود الذى وعدته ،

الذى إذا سأل أعطيته ، وإذا طلب أجبته ،

إنك سبحانك لا تخلف الميعاد . . .

غفر الله لنا ، ولوالدينا ، ولجميع المؤمنين والمؤمنات . .

فاللهم : صل وسلم وبارك علىٰ سيدنا

وعلىٰ آله وصحبه : عدد خلقك ، ورض

وزنة عرشك ، ومداد كلماتك

